

سَبِيلُ اللَّهِ

"قُلْ هُدَى اللَّهِ سَبِيلٌ أَوْ غَوًى إِنَّ اللَّهَ
عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ" وَأَنَا وَمَنْ اتَّبَعَنِي

عَنْ سَائِرِ الْأُمَّةِ أَنْصَحُكُمْ

مِنْ خَصَائِصٍ وَمُنَاقِبٍ

سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ

مُحَمَّدٌ ﷺ

تَأْلِيفُ

بَدْرِ طَرِيقِ الْإِسْلَامِ

سَبِيلُ اللَّهِ

”قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ
عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي“
صدق الله العظيم

من خصائص ومناقب
سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ

مُحَمَّدٌ ﷺ ﷺ ﷺ

تأليف
بَدْرِ قُطَيْبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ

أعيروا كتباً لي لفتنة وتأملوا محاسن ما يحويه من رقة التصنع
أحكموا ورذاً لنهض حقيقته ولكن جفوق الطبع تحفظ بالطبع

مطبعة الكيلاني
الدير المنول رشاد كامل كيلاني
٢٢ شارع غيط العدة - باب الحارة
ت ٩١٨٥٩٨

فهرس الكتاب

رقم الصفحة	
١	كلمة التصدير
ب	استهلال
د	الإهداء
ى	مقدمة
١	الباعث على نشر هذه الرسالة
٣	يجب علينا أن نتجنب كل ما قاله المتأخرون عن طريق الفكر والاستنتاج
٥	دور الشعر في المديح
١٥	كتب الكلبي للنبي صلى الله عليه وسلم خمائة أم ، كاهن من نكاح كنكاح الإسلام
٢٥	البشارة به صلى الله عليه وسلم
٤١	مولده صلى الله عليه وسلم
٤٢	رضاعه صلى الله عليه وسلم
٤٣	حياته الأولى صلى الله عليه وسلم
٤٥	جهاده وصبره صلى الله عليه وسلم
٤٥	هجرته صلى الله عليه وسلم
٤٨	واجبنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم
٦٢	وجوب محبته صلى الله عليه وسلم
٦٦	وجوب طاعته صلى الله عليه وسلم
٦٨	وجوب نصرته صلى الله عليه وسلم
٦٩	ما احتمن الله به رسوله صلى الله عليه وسلم
٧٨	سيدنا محمد : الرباني ، صلى الله عليه وسلم
٨٩	جملة من أخلاقه صلى الله عليه وسلم

- ٩١ حله صلى الله عليه وسلم
- ٩٨ صدقه وأمانته صلى الله عليه وسلم
- ١٠٢ زهده صلى الله عليه وسلم
- ١٠٥ جوده وسخاؤه صلى الله عليه وسلم
- ١١٠ تواضعه صلى الله عليه وسلم
- ١١٤ شففته صلى الله عليه وسلم
- ١١٩ شجاعته صلى الله عليه وسلم
- ١٢٣ حياؤه صلى الله عليه وسلم
- ١٢٤ حفظ الله تبارك وتعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم
- ١٤٠ سيدنا محمد : الداعي صلى الله عليه وسلم
- ١٤١ فصاحته صلى الله عليه وسلم
- ١٦٠ معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم
- ١٦٩ سرعة إجابة دعائه صلى الله عليه وسلم
- ١٧٠ تسبيح الطعام بين يديه صلى الله عليه وسلم
- ١٧٠ تكثير الماء ببركته صلى الله عليه وسلم
- ١٧١ شكوى البهائم إليه صلى الله عليه وسلم
- ١٧١ نبع الماء من بين أصابعه الشريفة صلى الله عليه وسلم
- ١٧٣ إخباره صلى الله عليه وسلم بالمغيبات
- ١٧٦ الخاتمة
- ١٧٦ ما قالته « حليلة » السعدية رضى الله عنها في حبه ﷺ
- ١٧٩ قول بعض الأفاضل في مدح أهل البيت السكرام رضى الله عنهم
- ١٨٠ بعض مناقبه صلى الله عليه وسلم
- ١٨٤ بعض ما قاله « البوصيري » رحمه الله تعالى ورضي عنه

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿كَلِمَةُ التَّصْدِيرِ﴾

الْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ ، وَالصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَشْرَفِ الْخَلْقِ
وَسَيِّدِ الْبَشَرِ ، وَخَاتَمِ النَّبِيِّينَ ، وَأَفْضَلِ الرُّسُلِ :
سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ ، وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ .
وبعد : فإني أقدم هذا الكتاب الصغير في حجمه ،
الكبير في معناه وفعله ، وقد توجّهت ببعض خصائص
ومناقب سيدنا رسول الله :

[مُحَمَّد]

صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ - وَآلِهِ وَصَحْبِهِ - وَسَلَّم
وقد اقتصرْتُ فيه على أن أجمع ما هو واجب معرفته لدى
إخواني المسلمين ، موجزاً ما تيسر جمعه ، لعلني بمشاغل المسلم
في هذا العصر الحديث ، الذي اقتطع من الناس أكثر سنوات
حياتهم ، وهم يُكافحون من أجل التزاماتهم المعيشية .
وأسأله تبارك وتعالى أن يجعله نافعا ،
وأن يهدي هذه الأمة السكينة سواء السبيل :
إنه على كل شيء قدير .

المؤلف

بروي طه عازم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

استهلال

سَيِّدِي يَا رَسُولَ اللَّهِ ، يَا مَنْ أَنْتَ فِي السَّمَاءِ مَحْمُودٌ ،
صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْكَ - وَآلِكَ وَصَحْبِكَ - وَسَلِّمْ ..
وَفِي الْأَرْضِ « مُحَمَّدٌ » ، وَفِي الْجَنَّةِ « أَحْمَدُ » ،
وَفِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ مُمَجَّدٌ ، وَفِي الْمُرْسَلِينَ رَسُولٌ ..
وَفِي الْمَذْنُبِينَ شَفَعَكَ اللَّهُ ، يَا رَسُولَ اللَّهِ ..
يَا مَنْ ظَلَّلَتْهُ فِي الْهَجِيرِ غَمَامَةٌ ،
وَمَشَى عَلَى الرَّمْلِ مَا بَأَتْ لَهُ عَلَامَةٌ ،
وَفِي الصَّخْرِ الْأَصَمِّ غَاصَتْ أَقْدَامُهُ ،
وَهُوَ الشَّافِعُ فِي الْخَلْقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ..
يَا رَسُولَ اللَّهِ : يَا مَنْ بِإِنْقَامِ الْمُحْمُودِ ، وَاللَّوَاءِ الْمُعْقُودِ ،
وَالْحَوْضِ الْمُرُودِ ، وَالْجَنَّةِ وَالْخُلُودِ ،
وَالشَّفَاعَةِ الْعُظْمَى فِي الْيَوْمِ الْمَوْعُودِ ، وَعَدَكَ اللَّهُ .
يَا مَنْ أَرْضَعَتْهُ « حَلِيمَةُ » فِي الصَّغَرِ ،
وَوَضَعَتْهُ الْغَمَامَةُ فِي السَّفَرِ ،
وَأَكْرَمَتْهُ مَوْلَاهُ وَانْشَقَّ لَهُ الْقَمَرُ ،
وَهُوَ الرَّسُولُ الْمَبْعُوثُ مِنْ « مُضَرَ » ،
وَلَهُ الدَّرَجَةُ الرَّفِيعَةُ عِنْدَ اللَّهِ .

(ج)

يا مَنْ إِذَا مَشَى يَسْبِقُهُ النُّورُ ، وَإِذَا تَبَسَّمَ أَخْجَلَ الْبُدُورَ ،
وَلِرُؤُوسِهِ تَفْتَحُ الْوُرْدُ وَأَيْنَعَتِ الزُّهُورُ ،
وَفِي الْمَلَأِ الْأَعْلَى عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى !..
قَبْلَ الْبَعِيرِ قَدَمَيْكَ ، وَالْغَزَالَةَ سَلَّمَتْ عَلَيْكَ ،
وَالْعَنْكَبُوتُ - فِي الْغَارِ - خَيَّمَتْ عَلَيْكَ ،
وَالْحَجَرُ الْأَصْمُ لَأَنْ تَحْتَ قَدَمَيْكَ ،
يا سَيِّدِي وَسَيِّدِي ، وَذُخْرِي وَذَخِيرَتِي ،
وَعُمْدَتِي وَاعْتِمَادِي يَا رَسُولَ اللَّهِ .

أَلَا يَا رَسُولَ اللَّهِ : يَا أَشْرَفَ الْوَرَى
وَيَا مَنْ رَمَى الْأَعْدَا بِبَيْضِ الْبَوَاتِرِ
لَكَ الْمَدْحُ فِي الْأَعْرَافِ وَالطُّورِ وَالنِّسَا
وَفِي لَمْ يَكُنْ وَالذَّارِيَاتِ وَغَايِرِ
يَقُولُونَ لِي : وَالنَّجْمِ شَمْسُ الضُّحَى بَدَتْ
بِأَنْوَارِ طَهَ قُلْتُ : سُبْحَانَ فَاطِرِ

المحبُّ الوهَّان

بدوى طه علام

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الإهداء

إِلَى سَيِّدِنَا وَمَوْلَانَا : رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ - وَآلِهِ وَصَحْبِهِ - وَسَلَّمَ ..
هَذِهِ الرِّسَالَةُ : اسْتَمَلَيْتُهَا سَيِّدِي : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
مِنْ خُلُقِكَ الْعَظِيمِ الطَّاهِرِ ، وَثَمَائِكَ اللَّطِيفَةِ السَّامِيَةِ ،
وخصائصك النادرة العالمة ..

فمن تتبعها بالفهم والتقدير ، كان من المخلصين المؤمنين المتقين ،
الذين يتمتعون بسعادة النفس ، ويحفظون بنعيم الروح ..
طَلَعْتَ سَيِّدِي : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْكَ
- وَآلِكَ وَصَحْبِكَ - وَسَلَّمَ
فِي سَمَاءِ الْوُجُودِ ؛ فَكُنْتَ نُورَهُ وَسَنَاهُ ، وَجِئْتَ إِلَيْهِ
- وَقَدْ جَعَدَ - فَكُنْتَ قَلْبَهُ وَهُدَاهُ ..

سَيِّدِي : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،
صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْكَ - وَآلِكَ وَصَحْبِكَ - وَسَلَّمَ ..
لَقَدْ سَمَّاكَ حَدُّكَ عَبْدُ الْمَطْلَبِ : عَهْدًا ،
رَجَاءً أَنْ تُخَمِّدَ فِي الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ ..
وَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى هَذَا الرَّجَاءَ ،
وَاضْطَلَمَكَ مِنْ أَشْرَفِ الْقَبَائِلِ ، وَأَكْرَمِ الْعَشَائِرِ حَسْبًا وَنَسَبًا ..
وَيَكْفِيكَ - يَا سَيِّدِي - أَنَّكَ أَحَبُّ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَى اللَّهِ ..

سَيِّدِي : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،

صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْكَ - وَآلِكَ وَصَحْبِكَ - وَسَلَّم ..

ما عرفنا أجمل ولا أحسن منك ، كاملا مكملًا ، لا يُدانيك في كمالك رسول ، كما لا يُجاريك في سائر صفاتك إنسان ، لا سيما في سكينتك الباعثة على الهيبة والوقار ، وطلاقة وجهك الموجهة للمودة والإحلاص ، وحسن القبول الحلاب ما نفع من القلوب ، ورجاحة عقلك ، وصحّة رأيك ، وصدق فراستك ، وتأيدك بالوحي والقرآن ..

سَيِّدِي : يَا رَسُولَ اللَّهِ ،

صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْكَ - وَآلِكَ وَصَحْبِكَ - وَسَلَّم ..

قد بعثك الله تبارك وتعالى إلينا - أي للناس جميعا - وأرسلك بشريعتك السمحاء الخاتمة ، محبة منه سبحانه وتعالى لعباده ، ورعاية وفضلا ورحمة ، وهذه هي النعمة الكبرى ، والفوز والفلاح ، والسعادة العظمى . وإن الفوز بهما لا يحصل إلا بمتابعتك يا خاتم النبيين ، وسيد الأولين والآخرين ، في الأقوال والأفعال والأخلاق ، لقوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

سَيِّدِي : يَا رَسُولَ اللَّهِ :

صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْكَ - وَآلِكَ وَصَحْبِكَ - وَسَلَّم ..

إشدة ما كان ثباتك في الشدائد ، وصبرك على البأساء والنوائب ، وزهدك في الدنيا ، فما ملأت إلى غضارتها ، ولا جنحت لحلاوتها ، حتى انتصر حَقُّك على باطلهم ، فمَنَعُهم من صدق ، ومنهم من كفر وحققت عليه الضلالة ، ومنهم من ظلوا في غيِّهم يغمهون ..

(و)

سَيِّدِي : يَا رَسُولَ اللَّهِ :

صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْكَ - وَآلِكَ وَصَحْبِكَ - وَسَلَّم ..
ما أكثر تواضعك وخفض جناحك لأصحابك ، وحلمك وأدبك ،
وحفظك للعهد ، ووفاءك بالوعد ؛ إذ كنت ترى البغض من أكبر
الذنوب ، والإخلاف من أشد العيوب ؛ ومع ذلك فأنت نبي
« الْمَلَحَمَةِ » حيث قلت يا سيد الأكران ، وخير موجود من آل عدنان :
« جُعِلَ رِزْقِي تَحْتَ ظِلِّ رُمَحِي ! ..

وَجُعِلَ الذُّلُّ وَالْهَوَانُ عَلَى مَنْ خَالَفَ أَمْرِي . »

سَيِّدِي : يَا رَسُولَ اللَّهِ :

صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْكَ - وَآلِكَ وَصَحْبِكَ - وَسَلَّم ..
ما أعظم حكمتك البالغة ، وعلومك الباهرة ، وحفظك لما أطلعك
الله عليه من أخبار النبيين ، وأبناء العالم في الزمن الغابر والحاضر ،
فلم يترك - سبحانه - صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها لفكرك الثاقب ،
وذهنك الوقاد ، مما ينفع الناس في دينهم : دينا وأخرى ! ..

سَيِّدِي : يَا رَسُولَ اللَّهِ :

صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْكَ - وَآلِكَ وَصَحْبِكَ - وَسَلَّم ..
لقد أحرزت جوامع الكلم بأحكامك [أحكام فرعك الأقوم]
بأظهر دليل وأوضح برهان ، وجمعك محاسن الأخلاق ؛ فكنت تصل
الأرحام ، وتعطف على الضعفاء ، ولا تؤذ التباعض والتحاسد والتقاطع
والتباعد ، وحفظ لسانك الشريف من التعريف في القول ، ومصاحتك
العربية معروفة على مدى الأجيال ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها .

(ز)

أنت أفصح الناطقين لساناً ، وأوضحهم بياناً ، وأجزهم
كلاماً ، وأجزهم لفظاً ، ولم يظهر في كلامك دُخنة التكلف ،
ولا قِيهة التعسف . . .

سَيِّدِي : يَا رَسُولَ اللَّهِ :

صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْكَ - وَآلِكَ وَصَحْبِكَ - وَسَلَّم ..
لقد أُرْسِلت لإقامة معالم الدين ، ومناهج الأحكام ، حتى أوضحت
لأمتك العبادات ، وبيّنت ما يحل وما يحرم من الباحات والمحذورات
وفصّلت الجائز والممتنع من الموارث والمعاملات ، وانتصبت لجهاد
الكفار والأشرار ، وقد أحاطوا بجهاتك ، وأحسدقوا بجهناتك ،
فلم تخش شيئاً إلا الله ، وذلك بما خصّصت به من الشجاعة والبسالة
وتأييد الله تبارك وتعالى . . .

سَيِّدِي : يَا رَسُولَ اللَّهِ :

صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْكَ - وَآلِكَ وَصَحْبِكَ - وَسَلَّم ..
يُؤسفني ويحزُنني أن الكثير من المسلمين لا يحفظون نسبك
الشريف وأسماء ذُرِّيَّتِكَ الطاهرة ، إلا بأقلّ القليل ، وكذلك أكثر
الطلبة والطالبات في مدارسنا لا يعرفون عزواتك صلى الله تبارك وتعالى
عليك وآلك وصحبك وسلم .! مع أن صبيان المكاتب « الكتاتيب »
في أروقة الأزهر ، وكذلك المدارس الأولية ، كانوا يعرفون ذلك ،
ويستظهرونه عن ظهر قلب في القديم القريب ، بل وصل تعلق أحد
المحبين اسمك ولذريتك الطاهرة أن يُضمّن أسماء هؤلاء الأعراف
الطهرين - مع ترتيب ولادتهم - فيقول :

(ح)

بِ « الْقَاسِمِ » ، بِنِ « الْمُصْطَفَى » ، وَ بِ « زَيْنَبِ »
وَ « رُقِيَّةِ » : هَبْ لِي الْقَبُولَ وَ « فَاطِمَةَ »
وَ بِ « أُمِّ كَلْثُومٍ » وَ « عَبْدِ اللَّهِ » : جُدْ
وَقِنِي بِ « إِبْرَاهِيمَ » شَرَّ الْأَحْطِطَةِ ! .

سَيِّدِي : يَا رَسُولَ اللَّهِ :
صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْكَ - وَآلِكَ وَصَحْبِكَ - وَسَلِّمْ .
ظَهَرَتْ فِي الْحَيَاةِ ، فَكُنْتَ نَوْرَهَا وَسَنَاهَا . وَاصْطَفَاكَ اللَّهُ لَتَكُونَ
رُحمةً لِلْحَيَاةِ بِمَنْ فِيهَا ، فَكُنْتَ السَّعَادَةَ لَهَا ، وَبِكَ رُحْمَاهَا ..

سَيِّدِي : يَا رَسُولَ اللَّهِ :
صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْكَ - وَآلِكَ وَصَحْبِكَ - وَسَلِّمْ
أَوْضَحْتَ لِلْمُسْلِمِينَ مَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ ، نَحْوُ : رَبِّهِمْ وَنَبِيِّهِمْ وَدِينَهُمْ
وَأَمْتَهُمِ الْوَاحِدَةَ ، وَأَوْطَانَهُمِ الْمُتَعَدَّةَ ، وَأَنْ يَسْتَسْهِلُوا كُلَّ صَعْدَةٍ
فِي سَبِيلِ الْمَعَالَى ، وَيَسْتَنْزِلُوا الْأَشَقَّ الْأَبْعَدَ بِتَقْدِيمِ الْمَسَالِ وَالْفَوَاقِ
الْقَوَالِي ، مِنْ أَجْلِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَدِينِ الْحَقِّ الَّذِي ارْتَضَاهُ لَهُمْ ..
فَهَلْ يَأْتُرَى يَسْتَمْعُونَ ، وَإِلَى دَعْوَةِ اللَّهِ : دَعْوَتِكَ يَسْتَجِيبُونَ
مَاذَا أَقُولُ عَمَّنْ أَوْقَى الْحِكْمَةَ وَفَصَلَ الْخُطَابِ ، فِي كَلِمٍ وَجِيزٍ جَامِعٍ
تَسْتَمِعُ إِلَى الْكَلِمَةِ مِنْهَا ، فَتَرَاهَا أَحْرَفًا مَعْدُودَاتٍ ؛ فَإِذَا اسْتَوْعَبْتَهَا
وَجَدْتَهَا تَحْمِلُ مِنَ الْمَعْنَى مَا لَا يَنْتَهِي إِلَى حَدٍّ ، أَوْ يَقِفُ عِنْدَ غَايَةٍ
وَإِنْ شِئْتَ - يَا أَخِي - فَاَنْظُرْ إِلَى هَذَا الَّذِي يَتَّبِعُ
مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ - وَآلِهِ وَصَحْبِهِ - وَوَسْوَ
إِلَى جَوَابِ شَافِيٍّ ، لَا يَسْأَلُ عَنْهُ أَحَدًا فِي الْإِسْلَامِ بَعْدَهُ ..

(ط)

إنه سفيان بن عبد الله الثقفي رضى الله عنه يقول : يا رسول الله :
قل لى فى الإسلام قولاً ، لا أسأل عنه أحداً غيرك .
فيقول صلوات الله وسلامه عليه ، محبباً هذا الصحابي الحليل :
« قُلْ : آمَنْتُ بِاللّهِ .. ثُمَّ اسْتَقِمَّ . »

والحديث فى صحيح مسلم ، وقد ذكره النووى فى باب الاستقامة
وأخيراً ماذا أقول عن رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه
- وآله وصحبه - وسلم ، الذى أخرج من الصحراء الغارقة فى الدماء ،
المتأججة بالبغضاء ، المتمودة فى الجاهلية الجهلاء ، أمثال : أبى بكر ،
وعمر ، وعثمان ، وعليّ ، وخالد بن الوليد ، وعبد الله بن عباس ،
وعبد الله بن مسعود ، وبلال الحبشى ، وأبا ذر الغفارى ، وعمار بن
ياسر ، وصهيب الرومى ، ومن إليهم من أقطاب السياسة وأعلام العلم .
لا يستطيع أحد من الناس - وإن ملك أسباب البيان - أن
يُخَصِّى شمائل النبىِّ العظيم صلى الله عليه وسلم ، أو يحصر خصاله ،
أو يحدّ آثاره . وإذا حاول ذلك ، فإنه يكلف اللغة شططاً ،
ويرهقها عُسرًا ، وأنى للغة أن تصل إلى تلك المرتبة الشَّاهِة ،
وتُصَوِّرَ الشبا والنباء (١) :

كَيْفَ تَرُقَى رُقَيْكَ الْأَنْبِيَاءُ

يا سَمَاءُ ما طاولَتْها سَمَاءُ ؟ !

لَيْسَ يَذْرِى قَدْرَ الْحَبِيبِ سِوَى اللَّهِ

فَمَإِذَا تَقُولُهُ الْفُصَحَاءُ ؟ !

(١) الشبا : طرف كل شيء ومقدمه ، والجمع : الشبا والشبوات .

والسبا : النبوة ما ارتفع من الارض .

والمقصود : عجز اللغة عن وصف علو مرتبته صلى الله عليه وسلم .

مقدمة

﴿ أثر قراءة السيرة المحمدية ﴾

لا رَيْبَ أن قراءة السيرة النبوية ، والعلم بما حوته من المعجزات وحوارق العادات ، من أقوى الأسباب لإيصال حلاوة الإيمان إلى القلوب ، وامتلاء العقول والأفئدة بتعظيمه صلى الله تبارك وتعالى عليه وآله وصحبه وسلم ؛ لأن تعظيمه وتوقيره ، وسيلة إلى تعظيم شريعته واحترامها والعمل بها ؛ فقد أخرج الله الناس بالإسلام من الظلمات إلى النور ؛ وأخيا به من العرب أمة حامدة ، وأرضا حامدة ..

وهل كانت العرب إلا فئة من جَوالة الأعراب ، خاملة فقيرة ، تجُوب الفلاة منذ بدء العالم ، لا يُسمع لها صوت ، ولا تُحسُّ منها حركة ؛ فأرسل الله إليهم محمداً صلى الله تبارك وتعالى عليه وآله وصحبه - وسلم بكلمة من لدنّه ، ورسالة من قبليه ؛ فإذا الخمول قد استحال شهرة ، والغموض نباهة ، والضعفة رفعة ، والضعف قوة ، والظلام نوراً ، وسع نوره الأنحاء ، وعمّ ضوؤه الأرجاء ، وعقد شعاعه الشمال والجنوب ، ووصل المشرق بالمغرب ..

وما هو إلا أقلّ من قرن - بعد هذا الحادث - حتى أصبح لدولة الإسلام رجل في الهند ، ورجل في الأندلس ، وأهترقت دولة الإسلام حَقَباً عديدة ، ودُهوراً مديدة ، بنور الفضل والنبيل والمروءة ، والبأس والنجدة ، وَرَوَّاقِ الحقِّ والهدى على المعمورة ، بإرسال سيّد الوحود (محمد) صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم .

(ك)

وجاء الإسلام بدعوة دين ، ودعوة دولة ، ودعوة حياة اجتماعية ، واقتصادية وفكرية ، وَوَضَعَ أُسُسَ العقيدة التي يجب أن يؤمن بها أتباعه ، ورسم حُدُودَ المعاملات بمختلف أنواعها التي تساعد على إقامة مجتمع إسلامي متميز .

وظهرت للوجود إمبراطورية إسلامية كبرى ، امتدت حتى حدود الصين وسهول سيريا ، وأحواض أنهار فرنسا الجنوبية والغربية ، وامتزج تحت الحكم الإسلامي أفراد وشعوب كثيرة ، اختلفت لغاتها وعاداتها وتقاليدها ، ولكنها ارتضت بغلبة اللغة العربية على إنتاجها الفكري ، فأصبح السُّمَّةُ المميزة لهذه المجتمعات المتعددة استعمالُ اللغة العربية (لغة الحكم ولغة القرآن) . ونتج عن ذلك كله حضارة شاملة أضاءت بأنوارها العالم ، بخصائصه صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ، التي أعطاه الله له ..

ولا شك أن الوقوف على بعض من حقيقة خُلُقهِ وخصائصه ، ومنزاته صلى الله عليه - وآله وصحبه - وسلم عند ربه ، تُوَصِّلُ إلى محبته ، وهي ولا شك رُوحُ الإيمان ، كما أن في السُّمَّى إلى معرفة أخلاقه وصفاته وخصائصه ، وذكرها وسماعها تَنْفَعُ وتلذذاً .

فأَنعم - أيها المسلم المؤمن - بمطالعة جزء من سيرة نبينا صلى الله عليه - وآله وصحبه - وسلم ، ومعرفة بعض ما حوته من أخلاق فاضلة وشمائل كريمة ، لأن الله أعطى نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، كثيراً من المنح والمزايا ، وميَّزه على جميع الأنبياء والرسل ، وأعطاها القرآن هدىً ورحمةً ، وجعل شريعته خاتمة للشرائع والرسالات وأَيَّدَهُ بِجَمَلَةٍ مِنَ الصِّفَاتِ ؛ حتى إن العربي القُحَّ ، كان يراه فيقول : (والله ما هذا بوجه كذاب) ..

(ل)

فكان يشهد له بالصدق بمجرد رؤيته ..
فكيف بمن شاهد أخلاقه وممارس أحواله في جميع مصادره وموارده ،
ورأى ما آتاه الله من الهيبة والجلال والتوفيق في الخطاب ،
وتبليغ الرسالة ، وهم صحابته رضي الله عنهم ، وهو القائل فيهم :
« أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ : بِأَيُّهِمْ أَقْتَدَيْتُمْ أَهْتَدَيْتُمْ . »
لقد آتاه الله كل ذلك ، وقد اشتملت كتب الحديث والسيرة على
ما استفاضت به الأخبار من آياته ومعجزاته صلى الله عليه وسلم .
والقرآن العظيم والفرقان الكريم ، قد وُشِّحَ بفضائل سيد المرسلين ،
وزُيِّنَ بمناقب حبيب رب العالمين ؛ حتى لو تأملت السور القرآنية
بأسرها ، لم تر الله عز وجل ، أنزل سورة وترك فيها ذكر حبيبه
صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم بالفضل
والإكرام ، أو غير ذلك من الإنعام .. والله درُّ القائل :
فَلَا أَحَدٌ يَقْضِي نَعْوَتَ كَمَالِهِ
سِوَى رَبِّهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَبَارَكَ !

وقال آخر (١) :

مَدَحَتْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ فَمَا عَسَى
يُثْنِي عَلَيَّ عَلَيْكَ أَنْظِمُ مَدِيحِي
وَإِذَا كِتَابُ اللَّهِ أَثْنَى مُفْصِحًا
كَانَ الْقُصُورُ : قُصَارَ كُلِّ فَصِيحٍ

(١) هذه الأبيات من قصيدة طويلة للوزير : لسان الدين بن الخطيب
في كتابه : « روضة التعريف بالحب الشريف » ط دار الفكر العربي .

(م)

ورحم الله - تبارك وتعالى - الفائِل (١) :

إِذَا رُمْتُ مَدْحَ الْمُصْطَفَى شَغَفًا بِهِ
تَبَلَّدَ ذَهْنِي هَيْبَةً لِمَقَامِهِ
فَأَقْطَعُ لَيْلِي سَاهِرَ الْجُفْنِ مُطْرِقًا
هَوَى فِيهِ : أَحَلَّى مِنْ لَذِيذِ مَنَامِهِ
إِذَا قَالَ فِيهِ اللَّهُ جَلَّ جَلَالُهُ
رَوَّوْفٌ رَحِيمٌ فِي سِيَاقِ كَلَامِهِ
فَمَنْ ذَا يُجَارِي الْوَحْيَ ، وَالْوَحْيُ مُعْجَزٌ
بِمُخْتَلَفِيهِ : نَثْرِهِ وَنِظَامِهِ ؟ !

وقال سيدي هلى وفا ، رضى الله عنه :
لَوْ أَبْصَرَ الشَّيْطَانُ طَلْعَةَ نُورِهِ
فِي وَجْهِ آدَمَ كَانَ أَوَّلَ مَنْ سَجَدَ !
أَوْ لَوْ رَأَى النَّمْرُودُ نُورَ جَمَالِهِ
عَبَدَ الْجَلِيلَ مَعَ الْخَلِيلِ ، وَمَا عِنْدُ !
لَكِنْ جَلَالُ اللَّهِ عَزَّ ، فَلَا يُرَى
إِلَّا بِتَخْصِيصٍ مِنَ اللَّهِ الصَّمَدِ

(١) يقول هذا الشاعر : ما عسى أن يبلغ الوصف أو يوفى المدح

في رسول الله صلوات الله وسلامه عليه ؟ !

وهذه الأبيات من المصدر السابق ص ٦٣٥ .

(ن)

وكان نبينا صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ،
جَمِيلُ الْخَلْقِ وَالْخُلُقِ ، جَمِيلُ الْمُحَيَّاتِ .. ولم يكن هناك من هو أجمل
منه ، حتى سيدنا يوسف ، وآدم أبو البشر ، كما ورد عن أنس
رضي الله عنه . وإنما لم يُفْتَنَّ به صلى الله تبارك وتعالى عليه
وسلم كيوسف ، لشدة تَحَبُّبِ جماله بالجلال والوقار ..

ومع ذلك قالت فيه عائشة رضي الله عنها :

قُلُوبُ سَمِعُوا فِي « مِصْرَ » أَوْصَافَ خَدِّهِ

لَمَّا بَذَلُوا فِي حُسْنِ « يُوسُفَ » مِنْ تَقْدِيرِ

لَوَائِي « زُلَيْخَا » ، لَوْ رَأَيْنَ جَمَالَهُ

لَأَثَرَتْ تَقْطِيعَ الْقُلُوبِ عَلَى الْأَيْدِي

وإذا صَحَّ أن السماء كانت تفتخر على الأرض قبل مولده صلى الله
تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ، وحرى بها ذلك ،
فكانت تقول : (إن العرش فيّ ، والملائكة والشمس والقمر
والنجوم ، وأنتِ خلوّ من هذا كله) .

فكان لها الفخر على الأرض ، إلى أن وُلد نبينا صلى الله تبارك
وتعالى عليه وسلم ، فافتخرت به الأرض على السماء ، فقالت :
(إن كانت الشمس والقمر والنجوم فيك ،
فقد ولد على ظهري نبيٌّ مبارك ..)

فورُ العرش من نوره ،

وعلى ظهري مبعثه ودعوته ،

وعلى ظهري تُستعمل شريعته) .

(س)

فلا جَرَمَ قد افتخرت الأرض - حقاً - بمحمد صلى الله
تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ، فقد جعل الله
شرقها وغربها طهوراً له صلى الله عليه وسلم ولأُمته ، وجعلت
شرقها وغربها مساجد للمسلمين ومُصَلَّى لهم ..

ولذا قال صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم :

« وَجَعَلْتُ لِي الْأَرْضَ : مَسْجِداً ، وَطَهُوراً . »

ورحم الله من قال ، مشيراً إلى ذلك :

فَلَوْ لَمْ يَمُتْ الْأَرْضَ يَوْمًا كَمَالُهُ

لَمَا عَمَّهَا نُورُ الصَّلَاةِ التَّيَمُّمُ

وَلَوْ لَمْ تُصَافِحْ رِجْلُهُ وَجَنَّةَ الثَّرَى

لَمَا جازَ يَوْمًا بِالثَّرَابِ التَّيَمُّمُ

وأما البُقعة التي مَنَّتْ أعضاءه صلى الله تبارك وتعالى عليه
- وآله وصحبه - وسلم ، فلا شك أنها أفضل بقاع الأرض
والسما والسماء وسائر الدنيا .. ولذا قيل :

جَزَمَ الْجَمِيعُ بِأَنَّ خَيْرَ الْأَرْضِ مَا

قَدْ حَاطَ ذَاتَ الْمُصْطَفَى وَحَوَاهَا

وَنَعَمْ : لَقَدْ صَدَّقُوا ، بِسَاكِنِهَا عِلَّتْ

كَالْنَفْسِ حِينَ زَكَتْ ، زَكَ مَاوَاهَا

(ع)

ولطالما جال في بالي ، أن أنشر منشور هذه اللاآلي ،
من الصفات المحمدية ، والخصائص الأحمدية ؛ لأن هذا هو الأمر
الأهم ، والشغل الأعظم ، والوسيلة الكبرى ، والنجاة العظمى . . .
لكن قلة رأس مالي من العلم ، صدني عن أعز آمالي ،
وكنت أتمثل بقول « الشافعي » رضي الله تبارك وتعالى عنه :
كَيْفَ الْوُصُولُ إِلَى « سَعَادَ » وَدُونَهَا

قَلَّ الْجِبَالِ ، وَدُونَهَا حُتُوفُ ؟ !
الرَّجُلُ حَافِيَةٌ ، وَمَا لِي مَرْكَبُ
وَالْكَفُّ صِفْرُ ، وَالطَّرِيقُ مَخُوفُ !

قال الله تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَا إِلَى رَجُلٍ مِنْهُمْ

أَنْ أَنْذِرِ النَّاسَ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا

أَنْ لَهُمْ قَدَمٌ صِدْقٍ عِنْدَ رَبِّهِمْ ﴾ .

أي بشر المؤمنين بأنهم مخصوصون بنبي ، هو إمام الصادقين
والصديقين ؛ الشيع المطاع ، وفيه تصريح بأنه عليه - وآله وصحبه -
الصلاة والسلام بشرى من الله تعالى لعباده المؤمنين .

فعلى المسلمين الاتحاد ، وأخدم بمحبة صلى الله تبارك وتعالى
عليه - وآله وصحبه - وسلم ؛ فإن به المنعة والقوة والعزة ،
إن شاء الله تعالى ..

﴿الباعث على نشر هذه الرسالة﴾

كان الباعث الأول لى على نشر هذه الرسالة ، هو الوقوف على جزء يسير من معرفة قدر النبي صلى الله تشارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ، اسكى يتحد المسلمون ولا يتباغضوا ، خصوصاً فى هذه الآونة العصيبة ، التى تقف فيها الأمة الإسلامية ، بكل ما استجمعت فى حصيلتها و ذخيرتها من أمجاد ومواقف تجلُّ عن الوصف ، إن صحَّ هذا التعبير .. فإنها تقف أمام عدوٍّ غاشمٍ أمّوج ، سواء كان هذا العدو من الغرب الاستعماري بأذنا به وخُدامه ، أو من الشرق الشيوعى بأتباعه وأشياعه ، وقد وقفنا منها فى قديم الزمان وحديثه - وما زالوا يقفان - موقف الحاقد البغيض ، يُريدان طمس أمجادها ، ويطآن مُقدَّساتها ، ويحرمانها مكانتها التى حظيت بها فيما سلف ، ليقطعا عليها طريقها الذى سارت فيه قديماً ، لتحقيق أغلى غاياتها وأعز أمنياتها .

وكان الباعث الثانى ، هو الوقوف على بعض المعرفة بكماله صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ، وعُلُو قدره ، وتَسَنُّمِهِ آفاقاً بعيدة فى حياتيه : الأولى والآخرة ، بكل مداراتهما المثالية ، وكيفية انصباعه بالصفات الإلهية ، وتخلُّقه بالأخلاق العظيمة ، أخلاق القرآن .. وما أعتقد إلا أن جميع من كتبوا عن سيّد البشرية - مع العلم أنه لن تنتهى الكتابة عنه صلى الله تبارك وتعالى عليه وسلم ، حتى يرث الله الأرض ومن عليها - إلا قد حاموا حول الحمى ، وكأن كتاباتهم جميعاً هوامش لصورة أصيلة فى الذهن والقلب ، تبلغ من الضخامة والسمو والرفعة ،

ما لا تستطيع معها هذه المُحَبَّرَاتُ من السُّكُتِبِ المُطَوَّلَاتِ ، أن تقترب منها دفعة واحدة ، أو تُرَكِّزَ عليها ، إلا بعد استئْشَافها جِوَانِبِ العِظَمَةِ فِيهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، أو الاستكشاف لما عساه أن يكون قد فاتها من نواحي عظمته ومثاليته النادرة صلى الله عليه وسلم .

فأكثر كتب التراث التي تحدت مؤلفوها عنه صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ، إنما كانت تحوى النصوص القرآنية والحديثية ، وهي كثيرة لا تُحصى ، منها على سبيل المثال لا الحصر : كتاب « الشفا للقاضي عياض » و « الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي » .

ومن المختصرات اللطيفة كتاب « سفر السعادة » ، وهو في ذكر حال رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم قبل نزول الوحي وبعده ، إلى أن لقي ربه جلّ وعلا ، وهو للعالم العلامة الشيخ « أبي طاهر مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي » صاحب القاموس ، ومختصر كتاب « الشئائل المحمدية » للمحافظ الترمذي ، وبهامشه الشرح المسمى بـ « العطر الشذي » لمؤلفهما الشيخ الجليل : عبد المجيد الشرنوبى الأزهرى .

وكثير من أسماء هذه السُّكُتِبِ ، وبعض أجزاء منها ، قد حواها « جواهر البحار » للعلامة الشيخ : يوسف النبهاني في ثلاثة أجزاء . وغيره من السُّكُتِبِ التي لا يُمكن إحصاؤها .

ومن الكُتُبِ في العصر الحديث : كثيرون ألّفوا المؤلفات عنه صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم . .

منهم من أنصرفت همه إلى الاستقصاء التاريخي ، كالدكتور
المرحوم محمد حسين هيكل في كتابه « حياة محمد » صلى الله تبارك
وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ، وكذلك كتبه عن خلفائه
عليه الصلاة والسلام : « الصديق أبو بكر » و « العاروق عمر »
كل ذلك على نحو منهجي ، قائم على حركة العقل ، ومُعطيات العلم ،
بلا حدود .

وكاتب آخر ، هو المرحوم « عباس محمود العقاد » في كتابه
« عبقرية محمد » صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ،
وكتبه الأخرى من مجموع العبقریات ، التي انتهت فيها إلى انجاء
تهليلي ، وكذلك أعمال المرحوم الدكتور « طه حسين » التاريخية ؛
« عثمان » و « عليّ وبنوه » و « الشيخان » و « مِرْآة الإسلام »
داخل هذا الإطار ، مما جعل هذه الكتب وغيرها من الكتب التي
تأخذ مسارها ، وهي تختلف تماماً عن الكتب القديمة .

على أننا كمسلمين يجب علينا أن نتجنب - في كتب المتأخرين
عامة - كل ما قالوه عن طريق الفكر والاستنتاج - ذلك لأنه
مبنى على مذهب معين ، لهدف معين .

فما وافق ديننا قلناه على الرأس والعين ،
وما لا يُوافق الدين رفضناه رفضاً باتاً ،
كائنًا من كان قائله .

والمنهج الذي يختلف عن منهج أهل الحديث ، وما ورد عن طريق
صحيح : منهج مأفون ، لأن الأحداث الإسلامية كلها وردت عن
طريق السند المتصل الصحيح .

فمثلاً عند ما انتقل النبي صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم إلى الرفيق الأعلى ، قال للسيدة عائشة رضى الله عنها :
 « إِذْ عَيَّ أَبَاكَ وَأَخَاكَ ، حَتَّى أَكْتُبَ كِتَابًا ،
 فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَتِمَّ مِثْمَنٌ ، وَيَقُولَ قَائِلٌ : أَنَا أَوْلَى
 وَيَأْتِي اللَّهُ الْمُؤْمِنُونَ إِلَّا أَبَا بَكْرٍ . »
 (رواه الإمام أحمد ومسلم وغيرهما من أهل الحديث) .

فما بال هؤلاء يتخذون منهجاً آخر ؟
 والمؤرخون القدامى - عفا الله عنهم - كثير منهم ، كحاطب ليل ، يأخذ ما عَثَّ وَسَمَّ ، ولا يُبالى بصحة الخبر وعدمها ، وذلك لسببين :
 أولهما : أن مهمة التأريخ الجمع وحسب .
 والثاني : تمذهب كثير منهم بمذهب معين ، فهو يكتب - في الغالب - ليعخدم مذهبه
 وحتى لا ينظلمهم ، فإنهم قد احتفظوا في كتبهم - في الغالب - بالسند المتصل أيضاً ، وما ورد بغير سند هو ما فيه الخلط ، وهو ما احتاره المستشرقون لظعن في أئمة المسلمين .
 وأما من دشوا أنفسهم من المعاصرين في هذا الخضم الزاخر من الأحداث ، فإنهم انتفوا أحسداً مُعَيَّنة ، لهدف معين يخدم أعداء الإسلام ولا شك ، واحتجوا بالمؤرخين ، وغربوا صفحاً عن السند الصحيح المتصل ، حتى يخدموا آباءهم الفكريين بالطراز المحبوب لهم .
 والكل يحاول هدم الإسلام ، ونحن نعرف ذلك عن يقين ،
 والحمد لله رب العالمين ...

وعن دور الشعر : في التعبير عن المشاعر الإسلامية ، والمناسبات الدينية التي تتعلق بالهجرة ، ومولد الرسول صلى الله تبارك وتعالى عليه وآله وصحبه - وسلم ، فهناك كم هائل ، لا سبيل إلى حصره . . . يكفينا منه معرفتك بـ « الإلياذة الإسلامية » المرحوم الشاعر « أحمد محرم » وهي تقع في ٥٠٠٠ بيت من الشعر ، تناول فيها حياة الرسول صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ومنافاته في ١٤٦ قصيدة جمعها في ديوانه « أجزاء » ، ولو طال به العمر رحمه الله ، لأوغل في سيرة الخلفاء الراشدين وفتوح الإسلام . . . والأدب العربي الديني يفيض بالروائع الخالدة في مدحه والحدوث عنه صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ، في الزمن القديم والحديث ، وقد شرف قدر شعر الشعراء الذين مدحوا الرسول عليه - وآله وصحبه - الصلاة والسلام .

قال أبو إسحق الغزي من قصيدة له :

بِحُجُودٍ قَضِيْلَةٍ الشُّعْرَاءِ عِيٌّ

وَتَكْرِيمُ الْكَرِيمِ مِنَ الرَّشَادِ

مَحَتْ بَانَتْ سَعَادُ ذُنُوبَ كَعْبٍ

وَأَعْلَتْ كَعْبَةُ فِي كُلِّ نَادٍ

وَمَا أَفْتَقَرَ النَّبِيُّ إِلَى قَصِيدٍ

مُشَبَّهٍ بَيْنِ أَوْ سَعَادِ

وَلَكِنْ ، سَنَ إِسْدَاءِ الْيَادِي

وَكَانَ إِلَى الْمَكَارِمِ خَيْرَ هَادٍ

ولا خلاف بين رُواة السَّيَر والأخبار ، ولا بين علماء الأدب في أن كعب بن زهير نشأ على ما كان عليه أبوه من إحساس الطباع ، بَيِّنَدَ أنه كان مُبْلَازِمُهُ رِقَّةَ حال ، ورقة ذات يد ، وقال الشعر قَاجَادَ فيه ، غير أنه لم يكن مُكْثِرًا فيه كآبيه ، لأنه لم يشتهر إلا بواحدته ، ولم تُتَوَكَّرْ هي وتَشْرُفْ إلا بمن قيلت فيه صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم .

وسبب نظم القصيدة ، قالت الرُّواة : أسلم « بجير » ، فعلم « كعب » بإسلامه ، فاغتَاز وشقَّ عليه ، فكتب إليه بأبيات من الشعر ينهاء عن إيمانه ويتطاول . فلما وقف « بجير » عليها ، أخبر بها رسول الله صلى الله عليه - وآله وصحبه - وسلم . .

فلما سمعها عليه - وآله وصحبه - الصلاة والسلام ، قال :
« مَنْ لَقِيَ كَعْبًا ، فَلْيَقْتُلْهُ . »

وأهدر الرسول عليه - وآله وصحبه - الصلاة والسلام ، دمه .

فكتب إليه أخوه « بجير » أبياتًا من الشعر ، مطلعها :

مَنْ مُبْلِغٌ « كَعْبًا » فَهَلْ لَكَ فِي الَّتِي
تَلُومُ عَلَيْهَا بَاطِلًا فَهِيَ أَحْزَمُ !

* * *

أى فهل لك في كلمة الشهادة التي تلوم عليها لَوْماً باطلاً ، فهي أجدى وأحزم ، ثم كتب له بعدها يُخبره أن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه أهدر دمه ، فالتَمِسَ الخلاصَ بأن تعتذر عما فرط ، فالتوى عليه الصلاة والسلام رُؤُوفَ رعيه ، وكرمه حلِيمَ .

قالوا : فلما قرأ « كعب » الكتاب ، أَوْحَسَ حَيْفَةً . وَأَتَى
إلى مُزَيْنِهِ : فَبَيَّنَتْهُ ، لِتَحْيِرِهِ مِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . .
فَأَبَتْ ذَلِكَ . وَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ، وَذَهَبَ إِلَى
الْمَسْجِدِ يَلْتَمِسُ الْمَبَىَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - وَآلِهِ وَصَحْبِهِ - وَسَلَّمَ . .
فَلَمَّا وَصَلَهُ تَائِبًا مُسْلِمًا ، قَالَ قَصِيدَتَهُ تِلْكَ ، فَرَضَى عَنْهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ - وَآلِهِ وَصَحْبِهِ - وَسَلَّمَ ، وَقَبِلَ نَوْبَتَهُ ، وَعَفَا عَنْهُ .
وَأَنشَدَ « كَعْب » قَصِيدَتَهُ عَلَى ثَلَاثَةِ أَقْسَامٍ :

- (١) الْغُرْلُ إِلَى آخِرِ الْبَيْتِ السَّابِعِ وَالثَّلَاثِينَ .
 - (٢) مَدْحُ الرَّسُولِ مِنَ الْبَيْتِ الثَّامِنِ وَالثَّلَاثِينَ إِلَى الْبَيْتِ الْخَامِسِ وَحَمْدُ حَسَنِ .
 - (٣) مَدْحُ الْمُهَاجِرِينَ مِنَ الْحَمَادِيِّ وَالْخَمْسِينَ إِلَى آخِرِهَا
- قالوا : فَلَمَّا أَنشَدَ (وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ) ،
قَالَ صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ - وَآلِهِ وَصَحْبِهِ - وَسَلَّمَ :
- « الْعَفْوُ عِنْدَ اللَّهِ » .

وَحِينَمَا دَخَلَ « كَعْب » عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ - وَآلِهِ وَصَحْبِهِ -
وَسَلَّمَ ، عَرَفَهُ . . وَقَالَ : « أَهَذَا كَعْبُ الَّذِي يَقُولُ مَا يَقُولُ ؟ » .
فَقَالَ الْعَالِمُ النَّاهِي شَيْخُ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : نَعَمْ . قَالَ :

(سَقَاكَ بِهَا الْمَأْمُورُ كَأْسًا رَوِيَّةً) .

فَقَالَ كَعْبُ : إِنَّمَا قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ :

سَقَاكَ أَبُو بَكْرٍ بِكَأْسٍ رَوِيَّةٍ .

فَأَنهَلَكَ الْمَأْمُورُ مِنْهَا وَعَلَّكَ

فَقَالَ عَلَيْهِ - وَآلِهِ وَصَحْبِهِ - الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ : « مَأْمُونٌ وَاللَّهِ »

وكره صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم : لفظة
 مأمور ، لأن العرب كانت تقول لمن يتكلم بالشئ من تلقاء نفسه :
 مأمور ، ويريدون أن الذى يقوله تأمره به الجن ، وإن كان النبي
 صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم مأمورا من الله ،
 ولكنه كرهه لعادتهم ، فلما قال المأمون (بالنون) رصيه ،
 لأنه مأمون على الوحي .

ولما أنشد « كعب » قصيدته ، ووصل إلى :

إِنَّ الرَّسُولَ كَنُورٌ يُسْتَضَاءُ بِهِ

مَهْنَسِدٌ مِنْ سَيُوفِ اللَّهِ مَسْئُولٌ

وذهب له النبي صلى الله عليه وسلم بُردته التى عليه .

وهذه البردة أرسل معاوية بن أبى سفيان عشرة آلاف درهم
 لكعب ، لتكون ثمنا لها .

فأبى قائلا :

(ما كنت لأوثر بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم أحدا) .

فلما مات كعب ، بعث معاوية إلى ورثته بعشرين ألفا ،
 فأخذها منهم .

هل تعلم ؟ : أن سيدنا شرف الدين محمد بن سعيد بن حماد
 الصنهاجى البوصيرى رحمه الله ، عارض هذه القصيدة بأخرى ،
 يقول فيها :

إِلَى مَتَى أَنْتَ بِاللَّذَاتِ مَشْغُولٌ

وَأَنْتَ عَنْ كُلِّ مَا قَدَّمْتَ مَسْئُولٌ ۝

فِي كُلِّ يَوْمٍ تُرَجَّى أَنْ تُتُوبَ غَدًا
وَعَقْدُ عَزْمِكَ بِالتَّسْوِيفِ مَحْلُولُ
أَمَا يُرَى لَكَ فِيهَا سَرٌّ مِنْ عَمَلٍ
يَوْمًا نَشَاطٌ ، وَعَمَّا سَاءَ تَكْسِيلُ ؟
فَجَرَّدَ الْعَزْمَ ، إِنَّ الْمَوْتَ صَارِمُهُ
مُجَرَّدٌ يَبِيدُ الْآمَالَ مَسْلُوكُ
إِلَى أَنْ يَقُولَ :

وَالْفَوْزُ فِي أُمَّةٍ صَوَّءِ الْوُضُوءِ كَمَا
قَدْ زَانَهَا غُرُورٌ مِنْهُ وَتَحْجِيلُ
تَظَلُّ تَشْلُو كِتَابَ اللَّهِ لَيْسَ بِهِ
كَسَائِرُ الْكُتُبِ تَحْرِيفٌ وَتَبْدِيلُ
فَالْكِتَابُ وَالرُّسُلُ مِنْ عِنْدِ الْإِلَهِ أَتَتْ
وَمِنْهُمْ : فَاضِلٌ حَقًّا وَمَفْضُولُ
وَالْمُصْطَفَى خَيْرُ خَلْقِ اللَّهِ كُلِّهِمْ

لَهُ عَلَى الرُّسُلِ تَرْجِيحٌ وَتَفْضِيلُ !
والبوصيري هو الإمام العلامة العارف بالله ، وَلَدَ رحمه الله
بدلاص ، وهي من قرى صعيد مصر ، في أول شوال من سنة
٦٠٨ هـ ، وتوفي في سنة ٦٩٥ هـ ودفن بالإسكندرية ..

وله ديوان مطبوع كله شعر جزل .

ولقد فتح الله عليه في مدح رسول الله صلى الله عليه وآله وتعالى
عليه - وآله وصحبه - وسلم ، فمدحه بقصائد تُزَنَّى على شعر

الفحول ، بالسهوة والجمال والجلال ، طار بها صيته ، وحلدها
ذكره ، منها (البردة) وهي القصيدة الميمية التي مطلعها :

أَمِنْ تَذَكُّرِ جِيرَانٍ بَدَى سَلَمٍ

مَزَجْتَ دَمْعًا جَرَى مِنْ مُقْلَةٍ بِدَمٍ ؟

وهي التي أشدها بين يدي رسول الله صلى الله عليه وآله وتعالى
عليه - وآله وصحبه - وسلم « مناماً » ، فخلع عليه بُرْدَهُ الشريفة ،
ومسح على جسده ، وكان مريضاً مرضاً عصبياً ، فشفي لوقته ...

ومنها الهمزية التي جمعت سيرة النبي صلى الله عليه وسلم مفصلة ،
وله رضى الله عنه قصيدة بليغة تُعَدُّ نحو ثلاثمائة بيت ، سميت
بـ (الحرج المردود على النصارى واليهود) فنذ فيها مزاعم النصارى
واليهود ، بحجج لا يجد ساهمها منهم إلى الرد عليه سبيلاً ، حتمها
بمدح النبي صلى الله عليه وآله وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ،
ملخصاً فيها سيرته . يقول فيه :

يَا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ : أَلَمْ تَكُنْ

طِفْلاً لِيُضُرَّ الْعَالِيَيْنَ مُزِيلاً ؟

إلى أن يقول :

إِنِّي أَمْرٌ : قَلْبِي يُحِبُّ « مُحَمَّدًا »

وَيَلُومُ فِيهِ : لَا تَمَّا وَعَذُولًا

أَحِبُّهُ ، وَأَمَلُ مِنْ ذِكْرِي لَهُ ؟

لَيْسَ الْمُحِبُّ لِمَنْ يُحِبُّ مَلُولًا

وقه در الفائل (١) :

ما أَرْسَلَ الرَّحْمَنُ ، أَوْ يُرْسِلُ

مِنْ رَحْمَةٍ تَصْعَدُ أَوْ تَنْزِلُ

أى بسبه صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ،
هكذا شاءت إرادة الله .

إلى أن يقول :

قُلْتُ بِهِ فِي كُلِّ مَا تَرْتَجِي فَهَوَّ شَفِيعٌ دَائِمًا يُقْبَلُ

وَعُدْتُ بِهِ فِي كُلِّ مَا تَخْشَى (٢) فَإِنَّهُ الْمَرْجِعُ وَالْمَوْثِلُ

وَنَادِيهِ ، إِنْ أَزْمَهُ أَنْشَبَتْ أَظْفَارَهَا ، وَاسْتَحْكَمَ الْمُعْضِلُ

يَا أَكْرَمَ الْخَلْقِ عَلَى رَبِّهِ وَخَيْرَ مَنْ فِيهِمْ بِهِ يُسْأَلُ

قَدْ مَسَّنِي الْكَرْبُ ، وَكَمْ مَرَّةً

فَرَبَّجْتَ كَرَبًا بَعْضُهُ يُذْهِلُ

وَأَنْتَ بَابُ اللَّهِ : أَيْ أَمْرِي أَتَاهُ مِنْ غَيْرِكَ ، لَا يَدْخُلُ

* * *

الاهم لا تعرنا شفاعته ولا عنايته ، وأدخلنا برحمتك

في رُمة المُتَّبِعِينَ له بإحسان ، إلى يوم الدين .

(١) هو الشيخ محمد بن الشيخ أبي الحسن البكري رضى الله عنه ،

والأبيات طويلة ، ثم قال في آخرها : وَأَنْتَ بَابُ اللَّهِ إلخ .

(٢) « تخشى » بوزن « تفعل » من الخشية أى ما تخشاه .

وليس معناها الحياء ، كما يستعملها الناس .

ولقد كان العبد الصالح صائباً في إنشاده هذه الأبيات أبجاً إصابة :

وَمِمَّا زَادَنِي شَرَفًا وَتِيهًا
وَكِدْتُ بِأَخْمَصِي أَطَا الثَّرِيَّا

تَدْخُولِي تَحْتَ قَوْلِكَ : يَا عِبَادِي ،
وَأَنْ صَيَّرْتَ « أَحْمَدَ » لِي نَدِيًّا

* * *

حقاً : لأن من عرف تاريخ حياته صلى الله عليه وسلم الشريفة ،
معرفة كاملة لا يعتريه أدنى شك في أنه صاحب ذروة الكمال ..
وبالإيمان برسالاته إيماناً صادقاً ، تبين حكمة العليّ الأعلى سبحانه
وتعالى ، في اختياره صلى الله عليه وآله وتعالى عليه - وآله وصحبه -
وسلم ، على السابقين واللاحقين ، ووضعه بالمحلّ الأعلى سيداً
للخلق أجمعين ..

من أراد استقصاء ما أفرغ الله عليه من الكمالات في أي نوع
من أنواع حياته ، فكأنما يحاول جمع ما في السحار من درر ،
أو ما في السماء من شُموس وكواكب ..
فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللَّهِ ، كَيْسَ لَهُ

حَدُّهُ ، فَيُعْرِيبُ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمٍ !

* * *

فأوسعُ الناسُ علماً ، وأفصحهم بياناً ، وأبلغهم لساناً ،
أو تكلم عن هذه النفس العلية القدسية - في أي نوع
من أنواع كلماتها - فإيه واقف دون الغاية :

وَلَكِنْ تَأْخُذُ الْأَسْمَاعُ مِنْهُ عَلَى قَدْرِ الْقَرَائِحِ وَالْفُهُومِ

ورحم الله القائل :

أَحِبَّ رَسُولَ اللَّهِ ، تَحْظَ بِمَا تَشَاءُ

فَإِنَّ جَمِيعَ الْخَيْرِ فِي ذَلِكَ الْحُبِّ

وَكَُنْ رَاضِيًا بِاللَّهِ : مَوْلَى وَسَيِّدًا

وَأَخْرِجْ جَمِيعَ الْكَائِنَاتِ مِنَ الْقَلْبِ

فإلى ذلك الحديث المفعم بالنور والضياء ، الذي يجعلنا نتمشق ذاته الشريفة ، ورسالته التي لم تكن محدودة بزمان ومكان ، لأنها خاتمة الرسالات السماوية ، أراد الله تبارك وتعالى لها ، أن تواجه كل زمان ومكان ، وكل جيل من أجيال الناس على مستوى عمر البشرية قاطبة ، إلى نهاية العالم ، وما أظن أن هناك مجالا أمتع للاستمتاع الذهني والقلبي - بالحق والحقيقة - من القرآن الكريم . فلا يسعنا بعد هذه الكلمات ، إلا أن نذكر باختصار شديد ، بعض ما وهب الله تبارك وتعالى نبيه المصطفى صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم من خصائص ومميزات ، نعلم قدر عطائه تبارك وتعالى الشامل الكبير ، لنبيه صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم .

كيف لا ، وهو الحكيم الجامع لجمل المنافع ، المشفع الشافع ، والبحر المفيض ، الذي لا يفيض : لا نور إلا من نوره ، ولا فرح إلا لسوره ، ولا تعظيم إلا لتكريمه ، ولا علوم إلا من تعليمه ، الأنبياء العالم ، الفائق على كل الخلائق .

بعض ما جاء في القرآن الكريم^(١)

من تعظيم قدره صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم
وعلاوة شرفه ومكانته الرفيعة المنيفة

(منها) قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ،
عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ،
حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾ .
فأعطاه تبارك وتعالى اسمين من أسمائه .

قال القاضى « عياض » ، رحمه الله تبارك وتعالى :
أثنى عليه بمحامد كثيرة ، من حرصه على هدايتهم ورؤسدهم ،
وإسلامهم وشدة ما يعتنقهم ، ويضربهم في دنياهم وأخراهم ،
وعزته عليهم ، ورأفته ورحمته بمؤمنهم .

ومثله قوله تبارك وتعالى :

﴿ لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ،
إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ ،
يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ
وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ،
وَإِنْ كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ .

(١) عن كتاب : (عهد صلى الله عليه وسلم ، القدوة المثالية)

وقوله عزَّ شأنه : ﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رُسُولًا مِّنكُمْ
يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ، وَيُزَكِّيْكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ ، وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾ .

روى عن علي بن أبي طالب ، رضى الله تبارك وتعالى عنه ،
عن النبی صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم في قوله
تبارك وتعالى : ﴿ ... مِنْ أَنْفُسِكُمْ ﴾ على قراءة فتح الفاء ،
أنه قال : (نسباً وصهرآ وحسباً .. ليس في آبائي من لدن آدم سِماح ،
كلها نكاح) .

وقال « السكلي » رضى الله عنه :
(كتبت للنبي صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه -
وسلم خمسمائة أمّ ، فما وجدتُ فيهن سِفاحاً ،
ولا شيئاً مما كان عليه الخاطئية)

وقال الإمام « جعفر الصادق » بن « محمد الباقر » رضى الله عنهما :
(علیم الله تبارك وتعالى عجز خلقه عن طاعته ، فعرفهم ذلك ،
لكي يعلموا أنهم لا ينالون العفو من خدمته .. فأقام بينه وبينهم
مخلوقاً من جنسهم في الصورة ، ألبسه من ثغته الرأفة والرحمة ،
وأخرجه إلى الخلق سفيراً صادقاً ، وجعل طاعته طاعته ، وموافقته
مُوافقته ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ ، فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

وقال « أبو بكر بن طاهر » رضى الله عنه : (زين الله تبارك وتعالى سيدنا « محمدا » صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم بزيينة الرحمة ، فكان كل رحمة ، وجميع شمائله وصفاته رحمة على الخلق ؛ فمن أصابه شيء من رحمته ، فهو الناجي في الدارين من كل مكروه ، والواصل فيهما إلى كل محبوب .

ألا ترى أن الله تبارك وتعالى يقول :

﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ .

فكانت حياته رحمة ، ومماته رحمة ،

كما قال عليه - وآله وصحبه - الصلاة والسلام :

« حَيَاتِي خَيْرٌ لَّكُمْ ، وَمَمَاتِي خَيْرٌ لَّكُمْ . »

وكما قال عليه - وآله وصحبه - الصلاة والسلام :

« إِذَا أَرَادَ اللَّهُ رَحْمَةً بِأُمَّةٍ ، قَبَضَ نَبِيَّهَا قَبْلَهَا ، فَجَعَلَهُ لَهَا قَرِطًا وَسَلَفًا . »

وقال « السمرقندي » رضى الله عنه : ﴿ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴾ ،

يعنى الجن والانس ، وقيل لجميع الخلق ، للمؤمن رحمة بالهداية ، وللمنافق رحمة بالأمان من القتل ، وللكافر رحمة بتأخير العذاب عنه .

قال « ابن عباس » رضى الله تعالى عنه : (هو رحمة للمؤمنين

والكافرين ، إذا ذُوفوا مما أصاب غيرهم من الأسم المكذبة . . .

وقد سماه الله تعالى في القرآن نورا وسراجا منيرا ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ قَدْ جَاءَكُمْ مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ،
وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا ﴾ .

وقد لله الله سبحانه على عظيم قدره صلى الله تبارك وتعالى عليه
ـ وآله وصحبه ـ وسلم في سورة « الانشراح » ، ويكفي منها :
﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ .

قال « بحبي بن آدم » رضى الله عنه : (بالنبوة)
وقيل : (إذا دُكرتُ دُكرتَ معي في قول : « لا إله إلا الله
محمد رسول الله ») . وقيل : (في الأذان) .

قال « قتادة » رضى الله عنه : (رفع الله ذكره في الدنيا
والآخرة ، فليس بخليل ولا مُتَشَبِّه ولا صاحب صلاة ، إلا يقول :
أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله !)

قال الإمام « جعفر الصادق » رضى الله تعالى عنه :

(لا يَذْكُرُكَ أَحَدٌ بِالرِّسَالَةِ ،

إِلَّا ذَكَرَنِي بِالرُّبُوبِيَّةِ) .

قال بعضهم : وفي هذا إشارة إلى مقام الشفاعة .

ومن ذكره معه تعالى أن قرآن بينهما بواو العطف المشتركة ،
ولا يجوز مثل هذا في غير حقه عليه ـ وآله وصحبه ـ الصلاة والسلام .
ولا يقال إنه وقع الجمع بين الله سبحانه وتعالى وبين الملائكة
في قوله تبارك وتعالى :

﴿ إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ ﴾ .

لأن أئمة المفسرين وعلماء المعاني قالوا : إن الواو في ﴿ يُصَلُّون ﴾ ضمير الملائكة خاصة ، وقدرُوا الآية : إن الله تبارك وتعالى صلى ، وملائكته يصلون ، فراراً من التشريك ، فالواو هنا واو الاستئناف .

وقد روى عن « عمر » رضي الله عنه أنه قال :

من فضيلتك عند الله تبارك وتعالى ،

أن جعل طاعتك طاعته ، فقال تبارك وتعالى :

﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ ، فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى أيضاً :

﴿ قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ ، فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ ﴾ .

قال « القاضى عياض » في الشما : ومما ذكر من خصائصه ، وبره الله به أن الله تبارك وتعالى حاطب جميع الأنبياء بأسمائهم ، فقال :

﴿ يَا آدَمُ ، يَا نُوحُ ، يَا إِبْرَاهِيمُ ، يَا مُوسَى ،

يَا دَاوُدُ ، يَا عِيسَى ، يَا زَكَرِيَّا ، يَا يَحْيَى ﴾ .

ولم يُخاطَب هو صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم

إلا بـ ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ ، يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ ،

يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ ، يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴾ .

قال « أبو الجوزاء » : (ما أقسم الله تبارك وتعالى بحياة أحد

غير سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ، لأنه أكرم البرية عنده) .

قال « ابن عباس » : ما خلق الله تبارك وتعالى وما ذراً ،
وما برأ نفساً أكرم عليه من سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه
- وآله وصحبه - وسلم ! وما سمعتُ الله تبارك وتعالى أقسم بحياة
أحد غيرك ، وذلك قوله تبارك وتعالى : ﴿ لَعَنَّاكَ ﴾ ، إذ معناه :
وبقائك يا محمد ، وقيل : وعيشك ، وقيل : وحياتك .

وأصله ضم العين من العمر .. ولكنها فتحت لكثرة الاستعمال ،
وهذا نهاية التعظيم ، وعاية التشريف ...

وفي هذا القدر الكفاية ، وإلا فالقرآن مبلى بما لا يحصى
من الآيات في عظيم قدره ، ورفيع شأنه صلى الله تبارك وتعالى عليه
- وآله وصحبه - وسلم ، حتى لقد جاء الكثير في الكتب السماوية
الأخرى ، كالطوراة والإنجيل من وصفه والثناء عليه وكرامته صلى الله
تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ..

حيث يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ .. الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ،
الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ ،
يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ،
وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ ،
وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ .
فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ
الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

نحمدك اللهم أن جعلتنا من خير أمة أخرجت للناس ، وحفظت القرآن الكريم من الضياع ، وحفظت رسولك الأمين صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم إلى يوم لحافه بالرفيق الأعلى من كيد العابثين والحاقدين والكائدين ، والكافرين بك وبنعمائك .

﴿ فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا ،

وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ ،

فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ .

صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنْ اللَّهِ صِبْغَةً ،

وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ ﴾ .

ورسالات الأنبياء جميعا هي إسلام الوجه لله . قال تبارك وتعالى :

﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ

عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ

مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ ،

لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ .

بهذا استحققت الأمة الإسلامية أن تكون شاهدة على الأمم السابقة ، وأن يكون الرسول شهيداً عليها .
قال الله تبارك وتعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ،
لَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ،
وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ .

والأنبياء إخوان ، ولذا كان المسلمون يؤمنون بالرسول ، ولا يفرقون بينهم ، ولا يسكرهون أتباع هذه الديانات .
والإيمان بجميع الأنبياء والرسول السابقين - دون تفرقه بين أحد منهم - مقرر في قوله تبارك وتعالى :

﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ،
وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ
وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ، وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى ،
وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ ،
وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

والإسلام قد جاء ليصحح اعتقادات أهل الكتاب ، وإن كان
لا إكراه في الدين على أحد . قال تبارك وتعالى :

﴿ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ
وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ، وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ .

لقد اندرجت جميع الرسائل السماوية السابقة في الإسلام .
قال تبارك وتعالى : ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ
وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ ، وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ ، فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا ،
وَلَنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ ، وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ ... وَرَضِيتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا ﴾ .
وقال : ﴿ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ﴾ .

لهذا كان صلى الله عليه وسلم أفضل البشر ، وبه امتن الله تبارك
وتعالى علينا .. ومن أجل النعم التي أسداها إليه ، يقول تبارك وتعالى :

﴿ وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ،
مَا كُنْتَ تَدْرِي : مَا الْكِتَابُ ، وَلَا الْإِيمَانُ ،
وَالَكِنِ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ،
وَلِإِنَّكَ لَنَهْدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

تنبيهها لعظم قدر سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .

وجميع أهل الأرض مدعوون إلى الإسلام ، قال تبارك وتعالى :
﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَمَنْ يَرْغَبْ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ
إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ ، وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا ، وَإِنَّهُ
فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : اسْلِمْ ،
قَالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ .

يستوى في هذه الدعوة الشرق والغرب ، والشمال والجنوب ،
بل يلتقى فيها الإنس والجن ، قال تبارك وتعالى :
﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ،
وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ ،
فَقَالُوا : إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ،
يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ ،
وَلَن نُّشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ﴾ .

والأنبياء جميعا ، طالعون بالتصديق برسول الله صلى الله عليه
وسلم إن أدركوا بعثته أخذ الله تبارك وتعالى عليهم العهد ،
وشهد جلّ جلاله عليه ، وكان عهد الله مشولا .

قال تبارك وتعالى :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ
وَحِكْمَةٍ ، ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ
بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ : قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي ؟
قَالُوا أَقْرَرْنَا . قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ .
فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ .

وفي الحديث الشريف قوله صلى الله عليه - وآله وصحبه - وسلم :

« لَوْ كَانَ مُوسَى وَعِيسَى حَيَّيْنِ ،

مَا وَسَعَتْهُمَا إِلَّا أَتْبَاعِي . »

والحديث الذي أخرجه « أحمد » في مسنده :

« أَنَا أَوَّلَى النَّاسِ بِعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،

لَيْسَ يَنِينِي وَيَنِينُهُ نَبِيٌّ . »

واتعدد نواحي دلالة القرآن على صدق النبي صلى الله عليه - وآله

وصحبه - وسلم ، كانت تلاوته تجمع بين الدعوة والحجة ..

وكثير من الداخلين في الإسلام بإخلاص لم يشهدوا من آيات

النسوة أكثر من أنهم سمعوا سورة أو آيات من القرآن ، فرأوا

الدعوة مقرونة بالحجة ، فعرفوا أنه كلام الله تبارك وتعالى ،

الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ..

قال تبارك وتعالى :

﴿ أَوْ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

وفي هذه الآية ما يفيد امتلاء القرآن بآيات صدق الدعوة

المحمدية ، وإنكار الله تبارك وتعالى على من يقترحون على رسوله

صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم الآيات .

البشارة به صلى الله تبارك وتعالى

عليه - وآله وصحبه - وسلم

في الكتب السالفة المقدسة ، ومن أسلم من اليهود والنصارى

أُخبرت الأنبياء المتقدمة على نبينا صلى الله تبارك وتعالى عليه
- وآله وصحبه - وسلم عن نبوته ، ولذلك جاء في القرآن الكريم
أن أهل الكتاب يجدون النبي صلى الله تبارك وتعالى عليه وسلم
في التوراة والإنجيل ، قال الله تبارك وتعالى :

﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ ،

الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ
يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ﴾ .

فهذه الآية صريحة في أن المصطفى صلى الله تبارك وتعالى عليه
- وآله وصحبه - وسلم مكتوب في التوراة والإنجيل .

والمراد بكتابه فيهما : ذكر معشيه ودعوته وشيء من نُفُوسِهِ .

وهذا المعنى موجود في الكتابين يقيناً ؛ فقد نزلت الآية على
مسمع من علماء الأمتين : اليهودية والنصرانية ، فمنهم من آمن به
عليه - وآله وصحبه - الصلاة والسلام ، وأحدهما في كتبهم من
ذكره بصفته وعلاماته . ومنهم من لم يُنكر أن يكون قد ذكر
في الكتابين رسول هذه النعوت والعلامات ؛ ولكنه يُكابر
في أن يكون المراد منه المصطفى صلوات الله تبارك وتعالى عليه
- وآله وصحبه - وسلم ويقول : إن المقصود منه نبى آخر .

وفي مثل هؤلاء نزل قوله تبارك وتعالى :

﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ
أَبْنَاءَهُمْ ، وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

والإخبارات الواقعة في حق رسولنا سيدنا محمد صلى الله تبارك
وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم كثيرة وموجودة إلى الآن .
فقد جاء في التوراة تشيراً برسولنا الكريم ، خطاباً لسيدنا موسى
- عليه السلام - في الباب الثامن عشر من سحر التثنية هكذا :

(وَسَوْفَ أَقِيمُ لَهُمْ نَبِيًّا مِّثْلَكَ مِنْ بَيْنِ إِخْوَتِهِمْ ،
وَأَجْعَلُ كَلَامِي فِي فَمِهِ وَيُكَلِّمُهُمْ بِكُلِّ شَيْءٍ أَمْرُهُ بِهِ .
وَمَنْ لَمْ يُطِيعْ كَلَامَهُ الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ بِاسْمِي ،
فَأَنَا أَكُونُ الْمُنْتَقِمَ مِنْ ذَلِكَ .

فالنبي الذي يجترئ على بالكبرياء ، ويتكلم باسمي
بما لم أمره به ، أو باسم آلهة غیری ، فليقتل .
وإذا أحببت أن تميز بين النبي الصادق والكاذب ،
فهذه علامتك أن ما قاله ذلك النبي باسم الرب ولم يحدث
فهو كاذب يريد تعظيم نفسه ، ولذلك لا تخشاه) .

وهذه البشارة ليست بشارة يوشع عليه السلام ، كما يزعم الآن
أخبار اليهود ، ولا بشارة عيسى عليه السلام ، كما زعم علماء يروتستنت ،
بل هي بشارة سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله
وصحبه - وسلم بوجوه :

الأول : أن اليهود المعاصرين لعيسى عليه السلام كانوا ينتظرون
نبيًا آخر مبشراً به ، وكان هذا المبشر به عندهم غير المسيح ،
فلا يكون المبشر به يوشع ، ولا عيسى عليه السلام .

الثاني : أنه وقع في هذه البشارة لفظ (مثلك) . ويوشع وعيسى
عليهما السلام لا يصح أن يكونا مثل موسى عليه السلام ، لأنهما من
بنى إسرائيل . ولا يجوز أن يقوم أحد من بنى إسرائيل مثل موسى ،
كما تدل عليه الآية العاشرة من الباب الرابع والثلاثين من سفر
التثنية ، والنبي المماثل لموسى عليه السلام في الرسالة العظيمة والشرعية
المستأنمة هو سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم .
وأيضاً لا مماثلة بين يوشع وبين موسى عليهما السلام ، لأن موسى
عليه السلام صاحب كتاب وشرعية جديدة مشتملة على أوامر ونواهي ،
ويوشع ليس كذلك ، بل هو مُتَّبِعٌ لشريعته .
وكذا لا توجد المماثلة بين موسى وعيسى عليهما السلام ،
لأن عيسى عليه السلام كان إلهًا وربًا - على رعم النصارى -
وموسى عليه السلام كان عبداً له .

الثالث : أنه وقع في هذه البشارة لفظ : (سوف أقيم) ويوشع
عليه السلام كان حاضراً عند موسى عليه السلام ، داخلاً في بنى إسرائيل
نبيًا في هذا الوقت .. فكيف يصدق عليه ' هذا اللفظ ١٢
الرابع : أنه وقع في هذه البشارة لفظ : (أجعل كلامي في فمه) ،
وهو إشارة إلى أن ذلك النبي ينزل عليه الكتاب ،
وإلى أنه يكون أميًا حافظًا للكلام ..

وهذا لا يصدق على يوشع عليه السلام ، لانتفاء كلا الأمرين فيه .
وأيضاً في الباب الثالث من كتاب الأعمال في الترجمة العربية
المطبوعة سنة ١٨٤٤ م هكذا :

(فَتُوبُوا وَارْجِعُوا كَيْ تُمَحِّىَ خَطَايَاكُمْ ،
 حَتَّى إِذَا تَأْتِيَ أَزْمِنَةُ الرَّاحَةِ مِنْ قُدَّامِ وَجْهِ الرَّبِّ ،
 وَيُرْسَلُ الْمُنَادِى بِكُمْ ، وَهُوَ يَسُوعُ الْمَسِيحُ ،
 الَّذِي إِيَّاهُ يَنْبَغِي لِلسَّمَاءِ أَنْ تَقْبَلَهُ إِلَى الزَّمَانِ الَّذِي تَسْتَرِدُّ فِيهِ
 كُلُّ نَفْسٍ تَكَلَّمَ بِهِ اللَّهُ عَلَى أَفْوَاهِ أَنْبِيَائِهِ الْقَدِيسِينَ مُنْذُ الدَّهْرِ .
 إِنَّ مُوسَى قَالَ : إِنَّ الرَّبَّ إِلَهُكُمْ يُقِيمُ لَكُمْ نَبِيًّا
 مِنْ إِخْوَتِكُمْ مِثْلِي ، لَهُ تَسْمَعُونَ فِي كُلِّ مَا يُكَلِّمُكُمْ بِهِ .
 وَيَكُونُ كُلُّ نَفْسٍ لَا تَسْمَعُ ذَلِكَ النَّبِيَّ تَهْلِكُ مِنَ الشَّعْبِ) .
 فهذه العبارة - سيما بحسب التراجم الفارسية - تدلُّ صراحة
 على أن هذا النبي غير المسيح عليه السلام ، وأن المسيح لا بد
 أن تقبله السماء إلى زمن ظهور هذا النبي ، وتسكنى لإبطال ادِّعاء
 علماء بروتستانت أن هذه الإشارة في حقِّه عليه السلام .
 والأوجه الأربعة التي ذكرناها تصدق في حقِّ سيدنا محمد صلى الله
 تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم على أكمل صدق ، لأنه غير
 المسيح عليه السلام ، ويماثل موسى عليه السلام في أمور كثيرة تظهر
 لمن تأمل في شريعتهم ، ولذلك قال الله تبارك وتعالى في كتابه المجيد :
 ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَاهِدًا عَلَيْكُمْ ،
 كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴾ .

سيما وأنه صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم
 من إخوة بني إسرائيل ، مع كونه عربيًّا صرفًا لأنه من بني إسماعيل
 وأنزل عليه الكتاب ... وكان أميًّا جعل كلام الله في فيه .

وكان ينطق بالوحي كما قال الله تبارك وتعالى :

﴿ وَمَا يَسْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ . ﴾

وكان مأموراً بالجهاد . وقد انتقم الله لأجله من صناديد قريش والأكاسرة والقيصرة وغيرهم ، وظهر قبل نزول المسيح من السماء ، وكان للسماء أن تقبل المسيح إلى ظهوره ، ليرد كل شيء إلى أصله ويمحق الشرك والتثليث وعادة الأوثان ، ولا يرتاب أحد من كثرة أهل التثليث في هذا الزمان الأخير ، لأن الصادق المصدق قد أخبرنا على أتم تفصيل وأكمل وجه ، بحيث لا يبي ريباً ما بكثرتهم وقت قرب ظهور المهدي رضى الله عنه ، وهذا الوقت قريب إن شاء الله ، ويكون الذين كلفه الله .. جعلنا الله من أخصاره وخدامه آمين . وقد صرح في هذه البشارة بأن الذي ينسب إلى الله ما لم يأمره يقتل ، فلو لم يكن محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم نبياً حقاً لكان يقتل ، وقد قال الله تبارك وتعالى في القرآن المجيد :

﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ ،

لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ ، ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ . ﴾

وما قيل ، بل قال الله تبارك وتعالى في حقه :

﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ ..

وأوفى وعده ، ولم يقدر على قتله أحد حتى لحق بالرفيق الأعلى ،

صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم .

وعيسى عليه السلام قتل وصلب - على زعم أهل الكتاب -

فلو كانت هذه البشارة في حقه ، لزم أن يكون نبياً كاذباً ،

كما يزعمه اليهود ، والعياذ بالله ...

وعلماء اليهود سلموا كونه صلى الله تبارك وتعالى عليه وسلم مُتَسَرِّاً
به في التوراة . لكن بعضهم أسلم ، وبعضهم بقي على الكفر .
ومن المشارات الآتية الحادية والعشرون من الباب الثاني والثلاثين
من سفر الاستثناء هكذا :

[هُمْ أَغَارُونِي ^(١) بَغَيْرِ إِلَهٍ ، وَأَغْضَبُونِي بِمَعْبُودَاتِهِمُ الْبَاطِلَةِ ،
وَأَنَا أَيْضًا أَغَيِّرُهُمْ بِغَيْرِ شَعْبٍ ، وَبِشَعْبٍ جَاهِلٍ أَغْضِبُهُمْ] .

والمراد بشعب جاهل هم العرب في جاهليتهم ، لأنهم كانوا في
غاية الجهل والضلال ، وما كان عندهم علم ، لا من العلوم الشرعية ولا من
العلوم العقلية ... وما كانوا يعرفون سوى عبادة الأصنام والأوثان ،
وكانوا مُحَقَّرِينَ عند اليهود ، ولكونهم من أولاد هاجر الحارثية ؛
فمقصود الآية أن بني إسرائيل أغاروني بعبادة المعبودات الباطلة ،
وأعيرهم باصطفاء الذين هم عندهم مُحَقَّرُونَ وجاهلون .. فأوفى بما وعد ؛
فبعث من العرب النبي صلى الله عليه وسلم ، فهداهم إلى الصراط
المستقيم ، كما قال الله تبارك وتعالى في سورة الجمعة :

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ
آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ،
وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ .

وليس المراد بالشعب الجاهل اليونانيون كما يُفهم من ظاهر كلامهم
مقدسهم بولص في الباب العاشر من الرسالة الرومية ، لأن اليونانيين
قبل ظهور عيسى عليه السلام بأزيد من ثلاثمائة سنة كانوا فائقين

(١) جاءت كلمة « أغاروني » في هذا السياق بمعنى « أغضبوني » .

على أهل العلم كلهم في العلوم والفنون ، وكان جميع الحكماء المشهورين مثل . سُقراط ، وبُقرات ، وفيثاغورث ، وأفلاطون ، وأرسطاطاليس ، وأرشيدس ، وبليناس ، وإقليدس ، وحالينوس ، وغيرهم الذين كانوا أئمة الرياضيات والطبيعات وفروعها قبل عيسى عليه السلام ، وكان اليونان في عهده على غاية الكمال في فنونهم ، وكانوا واقفين على أحكام التوراة وقصصها وسائر كتب العهد العتيق أيضا ، لكنهم ما كانوا معتقدين للملة الموسوية .

ومن المشارات ما ذكر في الباب الرابع والخمسين من كتاب أشعياء . . هكذا :

(سَبِّحِي أَيَّتُهَا الْعَاقِرُ الَّتِي لَسْتَ تَلِدِينَ ، أَنْشِدِي بِالْحَمْدِ وَهَلَالِي ، الَّتِي لَمْ تَلِدِي مِنْ أَحَلٍ أَنْ الْكَثِيرِينَ مِنْ بَنِي الْوَحْشَةِ أَفْضَلُ مِنْ بَنِي ذَاتِ رَجُلٍ .
يَقُولُ الرَّبُّ : أَوْسِعِي مَوْضِعَ خِيَمَتِكَ وَسُرَادِقَ مَضَارِيكِ ، أُنْسِطِي ، لَا تُشْفِقِي ، طَوِّلي حَبَالَكَ ، تَلِّي أَوْتَادَكَ ، لِأَنَّكَ تَنْفُذِينَ يَمَنَةً وَيَسْرَةً ، وَزَرْعُكَ يَرِثُ الْأَمَمَ وَيُعَمِّرُ الْمُدُنَ الْخَرِبَةَ . لَا تَخَافِي لِأَنَّكَ لَا تَخْزِينَ وَلَا تَخْجَلِينَ ، فَإِنَّكَ لَا تَسْتَحِينَ . . إِنَّمَا الرَّبُّ دَعَاكَ مِثْلَ الْأَمْرَأَةِ الْمُطَاقَةِ وَالْحَزِينَةِ الرُّوحِ ، وَزَوْجَةٍ مُنْذُ الصَّبَا مَرْدُودَةٍ .
قَالَ إِلَهُكَ : فِي سَاعَةِ الْغَضَبِ : أَخَفَيْتُ قَائِلًا وَجْهِي عَنْكَ ، وَبِالرَّحْمَةِ الْأَبَدِيَّةِ رَحِمْتُكَ .

حَلَفْتُ أَنْ لَا أَغْضِبَ عَلَيْكَ ، وَأَنْ لَا أُؤْبِخَكَ ؛
 فَإِنَّ الْجِبَالَ تَرْتَجِفُ ، وَالْثَّلَالَ تَنْزَلُ ،
 وَرَحْمَتِي لَا تَزُولُ عَنْكَ ، وَعَهْدُ سَلَامِي لَا يَتَحَرَّكُ .
 هَا يَا الْحَارِثَ الَّذِي لَمْ يَكُنْ مَعِيَ ،
 وَالَّذِي قَدْ كَانَ قَرِيبًا يَقْتَرِبُ إِلَيْكَ .
 هَا أَنَا ذَا حَلَقْتُ صَاتِنَا الَّذِي يَنْفُخُ فِي النَّارِ جَمْرًا ،
 وَيُخْرِجُ إِنْاءَ لِعَمَلِهِ ، وَأَنَا خَلَقْتُ قَتُولًا لِلْإِهْلَاكِ .
 كُلُّ إِنْاءٍ مَجْبُولٌ صِدِّكَ لَا يَنْجَحُ ،
 وَكُلُّ لِسَانٍ يُخَالِفُكَ فِي الْقَضَاءِ تَحْكُمِينَ عَلَيْهِ .
 هَذَا هُوَ مِيرَاثُ عَبِيدِ الرَّبِّ) .

المراد بالعاقرة في الآية الأولى « مكة المعظمة » ، لأنها لم يظهر
 منها نبي بعد إسماعيل عليه السلام ، ولم ينزل فيها وحى ، بخلاف
 « أورشليم » ؛ لأنه ظهر فيها الأنبياء الكثيرون ، وكثر فيها نزول
 الوحى . وبنو الوحشة عبارة عن أولاد هاجر ، لأنها كانت بمنزلة
 المعلقة ، المخرجة عن البيت ، ساكنة في البر . ولذلك وقع في حق
 إسماعيل عليه السلام في وعد الله هاجر (هذا سيكون إنساناً وحشياً)
 كما هو مصرح به في الباب السادس عشر من سفر التكوين ، وبنو
 ذات رجل ، عبارة عن أولاد سارة ، فخطب الله مكة أمراً لها
 بالتسبيح والتهليل وإنشاد الشكر ، لأن كثيرين من أولاد هاجر صاروا
 أفضل من أولاد سارة ، فحصلت الفضيلة لها بسبب حصول الفضيلة لأهلها ،
 ووفى بها وعد ، بأن بعث سيدنا محمداً صلى الله عليه وآله وسلم وتعالى عليه

وسلم أفضل الشر حاتم النبيين ، من أهلها في أولاد « هاجر » ..
وهو المراد بالصائغ الذي ينفع في النار جمرآ .. وهو القتل الذي
خلق لإهلاك المشركين .. وحصل لها السعة بواسطة هذا النبي ..

وما حصل لغيرها من المعابد في الدنيا ، إذ لا يوجد في الدنيا معبد
مثل الكعبة من ظهور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلى هذا الحين ..
والتعظيم الذي يحصل لها من القرايين في كل سنة من مدة ستة
وعشرين وثلاثمائة وألف عام ، بل وإلى يوم القيامة - إن شاء الله
تعالى - لم يحصل لبيت المقدس إلا مرتين : مرة في عهد سليمان عليه
الصلاة والسلام ، لما فرغ من بنائه في السنة الثامنة عشرة من
سلطنة توشيا . وبقي هذا التعظيم لمكة إلى آخر الدهر إن شاء الله ،
كما وعد الله بذلك في هذه الآيات .

وملك المسلمون ررعها شرقاً وغرباً ، وورثوا الأمم ، وعمروا
المدن في مدة قليلة ، لا تتجاوز اثنين وعشرين سنة من الهجرة ..
ومثل هذه الغلبة - في مثل هذه المدة القليلة - لم يسمع بها من
عهد آدم - عليه السلام - إلى زمان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم .
ولم يُظهِرْ شريعة جديدة بعد شريعته صلى الله عليه وسلم ..
بل وعد الله سبحانه وتعالى بأن يظهر دينه على الدين كله ،
وهذا مفاد قوله : (وزرعك يرب الأمم ، ويعمر المدن الخربة) .
وسلاطين الإسلام سلفاً وحلفاً ، اجتهدوا اجتهداً تاماً في بناء الكعبة
والمسجد الحرام وتزيينهما ، وحفروا الآبار والعيون في مكة ونواحيها ..
هذا غير ما تم - في وقتنا الحالي - من إصلاحات .. والغرباء يحبون
مُجاورتها - من ظهور الإسلام ، إلى هذا الحين - وألوف من الناس
يصلون إليها في كل سنة ، من أقاليم مختلفة وديار بعيدة ..

ووفى بما وعد بقوله : (كل إناء محبوب ضحك لا ينجح) ، لأن كل شخص أو أمة قامت بضدّها أذلّها الله ، كما وقع بأصحاب النمل ..

ومن البشارات ما ذكر في الثاني من المشاهدات ، هكذا :

(وَمَنْ يَغْلِبْ وَيَحْفَظْ أَعْمَالَهُ إِلَى النِّهَايَةِ ،

فَسَأُعْطِيَهُ سُلْطَانًا عَلَى الْأُمَمِ ، فَيَرْعَاهُمْ بِقَضِييبٍ مِنْ حَدِيدٍ ،
كَمَا تَكْسِرُ آيَةً مِنْ خَزَفٍ . وَأُعْطِيَهُ كَوْكَبَ الصُّبْحِ) .

فهذا الغالب الذي أعطى سلطانا على الأمم ، ويرعاهم بالقضيب من الحديد تارة ، وبالموعظة الحسنة واللين والرفق والشفقة والرحمة تارة أخرى ، هو سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ، كما قال الله تبارك وتعالى في حقه :

﴿ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾ .

وقد سماه « سطيح » الكاهن صاحب الوراثة (أى العصا الضخمة) فكنوز الأرض في رسالته ، والإنسانية كلها في كفالته : نهاوت عند مولده صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم شرفات إيوان البغي ، إنذاراً بزوال ظلم الأكاسرة وسطوة بيزنطة ، وانهارت قواعد المجوسية ، مع دخانها المتلاشى في بيت النار ، وغاضت أمواج الكفر المتلاطمة على دموع المظلومين ..

حتى إذا بلغ أشده وبلغ الأربعين سنة ، لم يعد وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقط ، بل أصبح سيدنا محمد - رسول الله صلى الله عليه وسلم - ينزل عروش الجبارين من حراء ، ويحمل إلى الأرض كتاب السماء ، ويبلغ رسالة ربه إلى ذرية آدم وحواء ..

أُمِّي يُعَلِّمُ الْأُمَمَ ، وَيُرْشِدُ الْقَارِثِينَ وَالْكَائِبِينَ !
يُوحِّدُ فِي تَوْحِيدِهِ الشُّعُوبَ ، وَيَجْمَعُ حَوْلَ أَنْوَارِهِ الْقُلُوبَ !
وَفِي شَرِيعَتِهِ انْتَهَتْ شَرَائِعُ الْأَنْبِيَاءِ ،
وَفِي سِيرَتِهِ التَّقَتْ فُضَائِلُ الْمُرْسَلِينَ جَمِيعًا .

ثَبَاتُ نُوحٍ ، وَاقْتِدَاءُ الذَّبِيحِ ، وَدَعَاءُ الْمَسِيحِ ، وَوَفَاءُ إِبْرَاهِيمَ ،
وَإِيْمَانُ الْكَلِيمِ ، وَتَحَنُّفُ زَكْرِيَّا ، وَحَنَانُ يُحْيَى .. الْأَنْبِيَاءُ قَبْلَهُ أَبْوَابُهُ ،
وَالْعَارِفُونَ بَعْدَهُ نَوَابِهِ ، وَالنَّصْرُ كَتِيبَتُهُ ، وَالْحَقُّ كِتَابُهُ ..
طَهَّرَ كَعْبَةَ اللَّهِ مِنَ الْأَوْثَانِ ، وَأَرْسَلَ نَشِيدَ التَّوْحِيدِ مِنْ صَوْتِ
بِلَالٍ بِالْأَذَانِ ؛ فَلَمْ تَكُنْ إِلَّا سَنَوَاتٌ مَعْدُودَاتٌ ، حَتَّى سَجَدَ الْمُؤْمِنُونَ
عَلَى أَرْضِ الْإِيْوَانِ ، لِرَبِّ الْعَالَمِينَ وَحْدَهُ ، لَا لِكُسْرَى أَنْوَشُرَوَانَ !
ثُمَّ أَقَامُوا الصَّلَاةَ لِرَبِّ السَّمَاوَاتِ فِي مَحْرَابِ دَاوُدَ بِالْمَسْجِدِ الْأَقْصَى ،
فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ .. !

هَذَا هُوَ نَبِيُّ اللَّهِ : مَنَارُ الْكَائِنَاتِ ، وَوَاحِدُ النَّيِّرَاتِ ، الَّذِي
أَنَارَ الْأَرْضَ بِالسَّجْدَاتِ ، وَأَذَاعَ نَسِيمَ الْجَنَّةِ مِنَ الْحِمَارَاتِ ، كَانَتْ
عَلَى بَابِهِ وَفُودٌ ، وَعِنْدَ أَمْرِهِ جُنُودٌ ، وَالْمَقَانِمُ كَثِيرَةٌ ، وَالنَّعْمُ وَفِيرَةٌ ..
وَمَعَ ذَلِكَ مَطْيِئَتُهُ - بَعْدَ الْبَرَاقِ - النَّاقَةُ وَالْبَعِيرُ ، يُؤَثِّرُ فِي جَنْبِهِ الْحَصِيرُ ،
وَلَوْ شَاءَ لَجَاءَهُ مِنَ الْفَرْدُوسِ الْحَرِيرُ ، وَلَوْ أَرَادَ لَصَافَحَهُ الْقَمَرُ الْمُنِيرُ !

* * *

وَالْمَعْرُوفُ أَنَّ لَيْلَةَ وَلَادَتِهِ صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ - وَآلِهِ
وَصَحْبِهِ - وَسَلَّمَ انْشَقَّ إِيْوَانُ كُسْرَى أَنْوَشُرَوَانَ ، وَسَقَطَ مِنْ ذَلِكَ
أَرْبَعُ عَشْرَةَ شَرَافَةً ، وَخَدَّتْ نِيرَانُ فَارَسَ ، وَلَمْ تَخْضُدْ مِنْ قَبْلِ ذَلِكَ
بِأَلْفِ عَامٍ ، وَغَارَتْ بِمَهْمِرَةٍ « سَاوَةٌ » بِحَيْثُ صَارَتْ يَابِسَةً .. !

ورأى « الموبدان » في نومه : أن إبلا صعباً تقود جيلاً عرباً ،
فقطعت « دجلة » وانتشرت في بلاده ..

فخاف كسرى من حدوث هذه الأمور ، وأرسل « عبد المسيح »
إلى الكاهن الذي كان في الشام ..

ولما وصل « عبد المسيح » إليه ، وجده في سكرات الموت ،
فذكر هذه الأمور عنده ... فأجاب « سطيح » :

(إذا كثرت التلاوة ، وظهر صاحب المراوة ،

وغاضت بحيرة « ساوة » ، ونجحت نار فارس ،

فليست بابل للفرس مقاماً ، ولا الشام لسطيح مناماً ،

يملك منهم ملوك وملكات على عدد الشرفات ،

وكل ما هو آت آت) .

ثم مات « سطيح » من ساعته ، ورجع « عبد المسيح » ، فأخبر
« أنوشروان » بما قال « سطيح » ..

قال كسرى :

(إلى أن يملك أربعة عشر ملكاً ، كانت أمور وأمر) .

فملك منهم عشرة في أربع سنين ، وملك الباقيون إلى خلافة

« عثمان » رضى الله عنه ، فهلك آحرم « يزدجرد » في خلافته .

وكوكب الصبح عبارة عن القرآن ، قال تعالى في سورة النساء :

﴿ ... وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا ﴾ .

وفي سورة التغابن :

﴿ ... فَاٰمِنُوْا بِاللّٰهِ وَرَسُوْلِهِ الَّذِىْ اَنْزَلْنَا ... ﴾ .

وما كان القرآن نوراً إلا لأنه كتاب الإسلام الذي يبرأ

من التعصب ، ويأمر بتصديق سائر الرسل ، والإيمان بما أنزل الله

من كتب ، وذلك بكل وضوح وجلالة في كتابه الكريم ..

يقول الله عز وجل :

﴿ قُواْ آمَنَّا بِاللّٰهِ ، وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا ، وَمَا أُنْزِلَ
إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ ،
وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ ، وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ
لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ ، وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ .

وها أنت ترى أن الديانات الثلاث - في جوهرها واصلها -
تنطق - كما لو كانت - كلا واحداً ، وتعترف على نعمة واحدة ،
فتصرّح جميعها بالعرف والإحسان ، وتدعو الإنسان لحب أخيه الإنسان ،
وكان أوضحها وأصرحها - في ذلك - هو الإسلام ..!

أما من جهة القرآن وعلو شأنه ، وقد تحدّى الله سبحانه وتعالى
جميع من في الوجود من الجن والإنس أن يأتوا بمثله ، فقال جلّ شأنه :

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا ،
فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ
مِّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ،

فَإِنْ لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا ، فَاتَّقُوا النَّارَ
الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾ .

لما سمع المشركون الذين تحدوا القرآن ، قالوا : ما يشبه
هذا كلام ! وإنا لفي شك منه ..!

فنزلت هذه الآية ، ووجه اتصالها بما قبلها أن الله سبحانه وتعالى
لما ذكر في الآية الأولى الدلالة على وحدانيته وقدرته ، ذكر بعدها
الدلالة على نبوة سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه وسلم .

واخبر (نزلنا) لأن المراد النزول على سبيل التدرج والتنجيم .
 وكل سورة من سور القرآن لا يمكن أن يأتي بمثلها أحد ..
 والقرآن كله معجز ، فلا يأتي أحد بمثل ما أتى به المتحدّثي
 على وجه المعارضة .. لقد أراد الله سبحانه وتعالى أن يشهد أهل الكتاب
 على أنفسهم ، وأن يسجل عليهم الإقرار بصدقه صلى الله عليه وسلم
 وأمانته في دعوته إليهم ، بما تحدّثهم به بقوله تبارك وتعالى :

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ ،

كَمَا يَعْرِفُونَ آبْنَاءَهُمْ ،

وَأَنَّ قَرِيبًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ .

وما دام القرآن هو كلام الله المتعبد بتلاوته ، وأنه يبقى بلا تعديل
 ولا تغيير ، فهو الحقيقة والصدق .. ومن أصدق من الله قيلا ؟
 وإلا ما استطاع رسول الله صلى الله عليه وآله تبارك وتعالى عليه - وآله
 وصحبه - وسلم أن يجهر به ويتلوه على أهل الكتاب ، بل والعالم كله ..
 وإلا فإذا أخبر القرآن بشيء ، وانضح أنه غير صحيح ،
 كان ذلك هدمًا للدين كله .. وحاشا أن يكون ذلك ..

قال مالك رضى الله عنه : (لمعنى أن بعضًا من أهل الكتاب
 كانوا إذا رأوا الصحابة الذين فتحوا الشام يقولون : والله لهؤلاء خير
 من الأسباط والحواريين فيما بلغنا) أى عن كتبهم المقدسة .

وصدقوا .. فإن هذه الأمة الحميدة - خصوصًا الصحابة - لم يزل
 ذكركم معظمًا في الكتب ، كما قال سبحانه وتعالى في كتابه :

﴿ ... ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ

كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ ، فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى

عَلَى سَوَاكِبِهِ ، يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ السُّفَّارَ ﴾ .

والمعنى أن أصحاب سيدنا محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه
- وآله وصحبه - وسلم آزره وأيدوه ونصروه ، فهم معه كالشطاء
مع الزرع ، و (شَطَاءُ) أفرأخه (لينظ بهم الكفار) .
ومن هذه الآية انتزع الإمام « مالك » - رحمه الله ، في رواية
عنه - تكفير الروافض الذين يغيضون الصحابة .

قال : (لأنهم يغيظونهم) ومن عاظه الصحابة فهو كافر ..
وقد وافقه على ذلك جماعة من العلماء . والأحاديث في فضل
الصحابة كثيرة ، ويكفي ثناء الله تبارك وتعالى عليهم ، ورضاؤه عنهم ..
وقد وعدهم الله مغفرة وأجرًا عظيمًا ، ووعد الله تبارك وتعالى
حق وصدق لا يُخلف ، لا يُبدل لكلماته وهو السميع العليم ..
صلاة الله - تبارك وتعالى - وسلامه عليك

- وآلِكَ وصحبك - وسلم يا سيدى يا رسول الله ،
فقد كوّنْتَ بأمر الله - تبارك وتعالى - أمة في زمن لا يكفى
لتكوين رجل واحد .. ثلاثة وعشرون عامًا هي مدة البعثة والهجرة ؛
ولكنها أعظم من ثلاثة وعشرين قرنًا ، ومن ثلاثة وعشرين دهرًا
كاملة في عمر الوجود الإنسانى .. استخرجت بها من أصداف العروبة
أصفي لآلها وأعلى فطرِها ، فابتعثت منها جنود الله تبارك وتعالى ؛
تراهم بشرًا ، وهم مصابيح تضيء وجوههم الظلماء ،
تبدو أعمالهم وكأنها فاكهة الجنة على الأرض ..

كنت سيدى رسول الله صلى الله تبارك وتعالى عليك - وآلِكَ
وصحبك - وسلم تأمرهم بالمعروف وتنههم عن المنكر ؛ فهم أشداء على
الكفار رحماء بينهم .. فتحت لهم من الصحراء طريق الجنة ، وسقيتهم
من شربعتك رحيق السكوثر ؛ فعاشوا رُقباء على أنفسهم ، كأنهم
في ساحة المحشر ، يخافون الله فلا يعصونه ، ويحبون الله فيطيعونه ..
ملائكة بالليل للتسبيح والصلاة ، وأبطال بالنهار للجهاد في الحياة ..

هؤلاء هم كواكب الأمة المولودة حين ولد محمد صلى الله
تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ! .
فهل أنتم - أيها المؤمنون - مستعدون لأن تتخذوا من مولده
صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم مولدا لأنفسكم ؛
ومن ربيعه - في كل عام - ربيعاً لتجديد أخلاقكم ؟ ...
ومن البشارات ما ذكر في الباب الرابع عشر من إنجيل يوحنا هكذا :
(إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَنِي فَاحْفَظُوا وَصَايَايَ .
وَأَنَا أَطْلُبُ مِنَ الْآبِ أَنْ يُعْطِيَكُمْ فَارَقْلِيطَ آخَرَ
يَثْبُتُ مَعَكُمْ إِلَى الْأَبَدِ) .

وقد وصف المسيح هذا الفارقليط بأوصاف لا تنطق إلا على بيننا فقال :
(إِنَّهُ يُوَبِّخُ الْعَالَمَ عَلَى خَطِيئَتِهِ ،
وَلِإِنَّهُ يَعْلَمُهُمْ جَمِيعَ الْحَقِّ ، لِأَنَّهُ لَيْسَ يَنْطِقُ مِنْ عِنْدِهِ ،
بَلْ يَتَكَلَّمُ بِكُلِّ مَا يَسْمَعُ) .

وهذا كما ورد في القرآن الكريم في سورة النجم :
(وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ) .
و (الفارقليط) معناه قريب من « مجد » و « أحمد » ..
ويصدق في القرآن قول الله تبارك وتعالى في سورة الصف :
(وَإِذْ قَالَ عِيسَىٰ بْنُ مَرْيَمَ يَا بَنِي إِسْرَآئِيلَ إِنِّي رَسُولُ
اللَّهِ إِلَيْكُمْ ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَةِ ، وَمُبَشِّرًا
بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ : أَحْمَدُ) .
ولعل نسخة التوراة الأصلية الموجودة باليمن ، بهما ما نحتاج إليه .

مولده : صلى الله عليه وسلم

ما زال البشير النذير ، يتنقل من أصلاب الطاهرين إلى أرحام الطاهرات ، حتى ولدت أمه .

لم يمسه من سفاح الحاهلية شيء ، وفي اليوم الثاني عشر من شهر ربيع الأول من عام الفيل ، إذ كان عبد المطلب بن هاشم في مجلسه الممتاز عند السكبة ، فأقبل عليه رسول يبشره بأن قد ولد لابنه : عبد الله ، غلام !

فامتلاً قلب الشيخ فرحاً ، وقام مسرعاً إلى أم الطفل : آمنة بنت وهب ، وأخذه بين يديه وسار به حتى دخل السكبة ، حيث سماه : محمداً . وكان هذا أول العهد باسم محمد ، الذي يشير إلى حميد الأفعال ، وكريم الخصال .

وتقول السيدة آمنة : لما تولى من حمله ستة أشهر ، مات أبوه : عبد الله ، وما شكوت في مدة حمله وجعاً ولا ألماً ولا ثقلًا .. ولما حان وقت ولادتي ، لم يعلم بي أحد من قومي ، وإني لوحيدة في المنزل وجده عبد المطلب في طوافه . فددت كف السؤال إلى من لا تخفى عليه حافية في الأرض ولا في السماء . ثم نظرت نوراً أضاء منه المكان ، فوضعت الحبيب ، معتمداً على يديه ، شاخصاً إلى السماء بعينه . ولد النبي صلى الله عليه وسلم مقطوع الشرة نظيفاً مختوناً ، وفي ذلك يقول صلى الله عليه وسلم :

« مِنْ كَرَامَتِي عَلَى رَبِّي ، أَنِّي وَلِدْتُ مَخْتُونًا

لَمْ يَر أَحَدٌ سَوْءَتِي » .

وفي ليلة ولادته ، خمدت نيران فارس التي كانوا يعبدونها ، وخرت
الأصنام منكبة على وجوهها ، وغاضت مياه بھيرة (ساوة) ! بل لقد
ظهرت لوضعه أنوار أضاءت لها قصور (بُصرى) ! وارتجّ في هذا
اليوم الشريف إيوان كسرى ! . وتوالت الهواتف ترف إلى العالم أجمع
هذه البشرى . أن قد ولد المصطفى سيد الخلق والشر ...

رضاعه : صلى الله عليه وسلم

قد اختار الله تعالى لإرضاعه حليلة السعدية .
فاستمع إليها إذ تقول : كان من عادة أهل مكة أن يخرجوا
بالأطفال إلى المراضع ، فأصابتنا سنة لم يأت الغيث فيها ، فجعنا في
أربعين امرأة نلتبس الرضاع ليواسونا بالرغد (العطاء) .
فدخلنا مكة . . وأتى أهل مكة بأولادهم عند السكبة ، فوقف
كل والد إلى جانب ابنه .. فتقدمت كل امرأة فأخذت مولوداً ..
فنظرت أنا ، فلم أر غير مولود ليس إلى جانبه أحد ! ..
فسألت عن أبيه ، فقيل لي : إنه يتيم مات أبوه وأمه حامل به ،
وهي الآن ضعيفة ، فقلت لبعلی : لم يبق إلا هذا المولود ، وهو
يتيم لا أب له ! فقال : ويحك . حديه ولا ترجع خائنين ، فلعل الله
تعالى أن يرزقنا بأجره وثوابه .
قالت حليلة : فأخذته ، وليس في صدري قطرة من اللبن ،
من الضعف والجوع . . فلما حملته قوى ضعفى ! ثم وضعت ثديي
في فيه ، فسال اللبن وتدفق ! .. فشرب حتى روى ! .
ثم ركب الدابة ، وكانت ضعيفة ، فجعلت تسبق الدواب
في القافلة ، فعجب الناس من ذلك .

قالت : فلما وصلنا إلى المنزل ، كانت عندنا شياهٌ عجافٌ ؛
فأخذنا يده ومررنا بها عليها ، فدرت لوقتها اللبن . . . وكثر الرق
والخير علينا ببركته ، حتى حسدتنا عليه جميع المراضع .

وكنت إذا أعطيته ثديه أخذه ، وإذا أعطيته ثدي أخيه في
الرضاع (ابنى) لم يأخذه !

وانقطع عنا الغيث ، فقالوا : يا حليمة إن هذا الموالود الذى عندك
على وجهه نور ! فلو أخذته معك حتى تستسقى به الغيث ، لكان خيراً لنا .
فأخرجته لهم ، فأخذوه وحملوه على أيديهم ، وخرجوا به إلى
ظاهر البلد ، فدعوا به . . . وإذا السحب قد جادت بالغيث حتى
نخفنا الفرق ! ولم يزل عندنا حتى قضيت رضاعه . .

حياته : الأولى صلى الله عليه وسلم

ولما بلغ السادسة من سنه توفيت والدته ، فحضنته أم أيمن ،
وكفله جده : عبد المطلب ، ثم كفله عمه : أبو طالب ؛ فكان عوناً له
فيما أَلَمَّ به إبان دعوته إلى الله تعالى . . .

أمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم حياته حتى بلغ رشده : طاهر
الذيل عفيف اللسان ، مرموقاً بالإجلال من سادات العرب ، لعزوفه
عما يقبل عليه شأن قريش ؛ فلم يُعاقَروهم خيراً ، أو يلاعبهم ميسراً ،
أو يَنخُصَّ معهم في حديث . . . فأصبح بذلك أحسن الناس خلقاً ،
وأصدقهم حديثاً ، وأكثرهم تواضعاً ، وأبعدهم عن دنيا الأمور . .

وقد روى البخارى أن هرقل : ملك الروم سأل عنه أبا سفيان قبل
إسلامه : هل كنتم تتهمونونه بالكذب قبل أن يقول مقالته ؟

قال : لا .. قال هرقل : ما كان محمد ليدع الكذب على الناس ،
ويكذب على الله .

وقال النضر بن أنى الحرت لقريش عندما كذبوا النبي صلى الله
عليه وسلم : لقد كان محمد فيكم غلاماً ، أرضاكم وأصدقكم حديثاً ،
وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم في صدعيه الشيب ، وجاءكم
بما جاءكم به : قلتم ساحر . لا والله ، ما هو بساحر . . .
وحدث أن لقي رجل أبا جهل ، وكان من ألد أعداء الرسول
صلى الله عليه وسلم - والفضل ما شهدت به الأعداء - فقال له :
يا أبا الحكم ليس هنا غيري . فخبرني عن محمد : أصادق هو أم كاذب ؟
فقال أبو جهل : والله إن محمداً لصادق ، وما كذب قط .

ولما حان الوقت ليحمل رسالة ربه إلى الناس كافة ، حببت إلي
الحياة ليفرغ قلبه ، وينقطع عن الخلق ، فكان يخلو بعيداً عن مكة
بغار حراء ، يتعبد فيه الليالي مفكراً متأملاً ، تأخذ الحيرة التي تعود إلى
الهدى ، تاركاً روحه تسبح سبوحاً طويلاً في سر هذا الكون المعجيب .
تناجيه نفسه صلى الله عليه وسلم بـ « إن في السماء لخبراً ، وفي الأرض
أَمبراً .. » إلى أن بلغ الأربعين ، فاستيقظ على صوت الملك : جبريل الأمين ،
الذي أيقظ من قبل موسى وعيسى وسائر الأنبياء والمرسلين قائلاً له :
﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ
عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ
الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ .

فأدرك بعد قليل أن الله جلّت قدرته ، وتمالت حكمته ، قد اختاره
شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ..

جهاده وصبره : صلى الله عليه وسلم

وكان سبب إيذاء المشركين لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعاندتهم له وغضبهم عليه ، بعد حبهم له ، أنه عليه الصلاة والسلام يدعوهم إلى عبادة الله وترك ما كانوا يعبدون من الأصنام ، فكبر عليهم أن يسوههم ويغير معتقداتهم ، ولذا لم يؤمنوا به عناداً واستكباراً .

هجرته : صلى الله عليه وسلم

لقد رأى رجال قريش أنهم إن لم يتدبروا الأمر وينظروا فيه ، فإن أمر محمد ﷺ غالب ، وشأنهم ذاهب ، فاجتمع أمراءهم ورؤسائهم وقال أحدهم : لقد علمتم أن أمر محمد قد ظهر وجاوز مكة إلى يثرب ، وإنا قد بلونا أصحابه بأنواع الأذى وصنوف المحن ، فوجدناهم صابرين أقوياء . . ثم وجدوا عند الخزرج والأوس عضداً ونصيراً ، فهرعوا إليهم بعد أن أذن لهم محمد - ﷺ - بالهجرة غير ممالين بأوطانهم وأموالهم وأولادهم ، وأكبر الظن أن محمداً سيلحق بهم ، وإذن ستكون المصيبة أشد ، ثم شب علينا بهم ، فتدور الدائرة علينا . . فأبدى كل منهم رأيه ، إلى أن انتهوا إلى رأى أبي جهل ، وهو أن يأخذوا من كل قبيلة شاباً جليداً نسيكاً ، ثم يعطوا كل قتي منهم سيفاً صارماً ، ويعمد هؤلاء إليه فيقتلوه ، وبذا يستريحون منه . . وأنهم إن فعلوا ذلك ، تفرق دمه بين القبائل ، ولم يقدر بنو عبد مناف على ضرب قومهم جميعاً . . فاستراحوا لهذا الرأي ، وتفرقوا على ذلك . ويوم أن اجتمعت قريش ، وأعدت كيدها هذا ، أوحى الله تعالى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم أن القوم قد بيتوا لك أمراً منكراً ، فيخذ عزمك للرحيل إلى المدينة .

فتوجه الرسول صلى الله عليه وسلم من ساعته ، لأبي بكر رضي الله عنه - الذي راح يهيئ الراحلتين - وواعد العتمة لصحبته . . ثم عاد إلى داره ، وهو عالم أن القوم سيحيطون بالمنزل ، هذه الليلة ، متربصين بخروجه ليقتلوه . .

وما انتصف الليل حتى خرج عليهم ، بعد أن أمر علياً أن ينام في فراشه ويتسجى ببردته ، وألقى الله عليهم النوم فناموا . . وخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم ينتبهوا . .

ثم ذهب إلى دار أبي بكر رضي الله عنه ، وسارا حتى بلغا غار « نور » ، فدحلاه ومكثا فيه ثلاثة أيام .

وفي هذا أنزل قوله تعالى :

﴿ ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ ،
إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ﴾ .

وكان يمر عليهما عامر بن فهيرة ، مولى أبي بكر ، بالأغنام في أعقاب اليوم ، فيمحتلبان ويندبحان . . ويأتى لهما عبد الله بن أبي بكر بالأخبار حتى سكن الطلب ، وعفل عنهما الناس .

ثم جاءهما عبد الله بن أريقط بالراحلتين ، وخرجا متوجهين إلى المدينة ، وأبو بكر لا يفتأ يذكر الطلب ، فيتلفت خلفه ، ويخاف الرصد حتى أدركهما مراقبة بن مالك . .

وما اقترب منهما ، حتى عثر به فرسه ، وساخت قوائمه في الأرض ، ثم نار من حوله الغبار والإعصار .

فأدرك سُراقة أن محمداً - رسول الله صلى الله عليه وسلم - ممنوع منه ، ولهذا استغاث بالرسول صلى الله عليه وسلم على أن لا يخبر قريشاً بشيء مما رآه .. فدعا له الرسول - صلى الله عليه وسلم - وعاد سُراقة ، ولم يقل لقومه شيئاً . .

وكان المسلمون من أهل المدينة يخرجون إلى ظاهر البلد كل يوم ، لا يعودون إلى منازلهم حتى تغلبيهم الشمس ، حتى كان يوم رجعوا منه إلى منازلهم ، وما راعهم إلا صائح يهتف : إن محمداً قد جاء .

فخرجوا إليه مهرواين ، وأحاطوه بنفوسهم ، فأقام بينهم أياماً ، أسس أثناءها المسجد بقاء ، ثم خرج بناقته والقوم يتهافون عليها ، فكان يقول لهم صلى الله عليه وسلم .

« خَلُّوا سَبِيلَهَا فَإِنَّهَا مَأْمُورَةٌ ! »

وما رالت تسير حتى إذا أدركت دار مالك بن النجار ، بركت [مكان باب المسجد الآن] وهو يومئذ مربد تمر سهل وسهيل ، وهما يتيمان .

وبقى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة عشرة أعوام يجاهد في سبيل إعلان الإسلام ، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا ، ووقف على عرفات في حجة الوداع ومعه مائة ألف أو يزيدون . . . وتمت العزة لله ولرسوله وللمؤمنين .

واجبنا مع رسول الله : صلى الله عليه وسلم^(١)

مقدمة

دخل رجل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأصابته رعدة من هيئته ، فقال صلى الله عليه - وآله وصحبه - وسلم :

« هَوِّنْ عَلَيَّكَ ، فَإِنِّي كَسْتُ بِمَلَاكٍ . »

إِنَّمَا أَنَا ابْنُ أُمْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ »^(٢) .

من هذا الحديث يتضح أن شخصية رسول الله صلى الله عليه وآله وصحبه - وسلم كانت قوية جدا ، بحيث تُهاب من غير حاجب ولا حارس كما يفعل الملوك .

فإذا كان المؤمنون قد كلّموا بالأدب أمام حضرة الرسول العظيم ، فليس ذلك لشئ من ضعف الشخصية أو لإيجاد احترام متكلف من قبل الناس ، وإنما كان هذا الكلف بالأدب لتنظيم العلاقة بين سيد الخلق وأمته ، ولكي يهم الجميع أن هذا الأدب ليس مئة من صاحبه مهما كان ، ولكنه فريضة عليه وحق لرسول الله على المؤمنين . إن تواضع الرسول عليه - وآله وصحبه - الصلاة والسلام الشديد ، وانفتاح مجلسه للجميع ، وإباحة مخاطبته لكل الناس ، ثم شدة الألفة التي قد ترفع السكفة بينه وبين الصفوة من أصحابه وغير ذلك ، استدعى تنظيم الصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإرشاد المسلمين إلى الآداب التي عليهم أن يُراعوها معه .

(١) عن مكتبة الإمام - ٣ - بتصرف ط ١٩٦٩

(٢) اللحم المجفف وكان أكل المساكين .

* ﴿ لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ﴾ .

روى البخارى فى صحيحه عن ابن الزبير ، قال : قدم ركب من تميم على النبي صلى الله عليه وسلم . فقال أبو بكر : أَمَرُ القَعْقَاعِ ابن معبد . وقال عمر : بل أَمَرُ الأَقْرَعِ بن حابس . فقال أبو بكر : ما أردت إلا خلافاً ! فقال عمر : ما أردت خلافاً .

فتماريا حتى ارتفعت أصواتهما .. فنزل فى ذلك :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ

وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

ومعنى ذلك أن الله أمر المؤمنين أن لا يسرعوا فى الأشياء قبله ، بل يكونوا تبعاً له فى جميع الأمور . فهذه الآية تدل على أن لا يتقدم بين يديه بأمر ولا نهى ولا إذن ولا تصرف حتى يأمر هو وينهى هو ويأذن هو عليه الصلاة والسلام .

وهذا الحكم باق إلى يوم القيامة ، سواء كان التقدم حقيقة كما كان فى حياته ، أو معنوياً كالتقدم بين يديه سنته الصحيحة التى لا معارض لها ، ولا راجح عليها ، بعد مماته صلى الله عليه وسلم .

فمن أناس من أهل حمص ، من أصحاب معاذ بن جبل ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أراد أن يبعث معاذاً إلى اليمن قال له : « كيف تقضى إذا عرض لك قضاء ؟ » قال : أقضى بكتاب الله . قال : « فإن لم تجد فى كتاب الله ؟ » قال : فسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال : « فإن لم تجد فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا فى كتاب الله ؟ » قال : أجتهد رأيي ولا آلو .

(١) البخارى : ج ٦ ص ١٧٢ ، ط . الشعب .

فضرب رسول الله صلى الله عليه وسلم صدره وقال : « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ، لما يرضى رسول الله ! » (١)
 فنحن ، طالمون أن لا نتقدم سنته في أى أمر من أمورنا أو سلوك من سلوكنا ، ومكلفون كذلك أن لا نخالفه في حكم صدر منه في أى قضية شجرت بيننا .

قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَاقِمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (٢) .

وهذا الحكم خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم ...

﴿ ... لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ ... ﴾ .

ومن الآداب التي كلف بها المؤمنون في حضرة رسول الله صلى الله عليه وسلم : خفض الصوت ، وعدم الجهر له بالقول كالاعتاد . بين الناس بعضهم مع بعض .

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾ (٣) .

(١) أبو داود : ج ٢ ص ٢٧٢ ، وأحمد والترمذي . (٢) النساء : ٥٦٥

(٣) العنكبوت : ٢

وحين نزلت هذه الآية خاف بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تكون أصواتهم قد ارتفعت أمام الرسول صلى الله عليه وسلم إلى الحد الذي يهبط أعمالهم .

فعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، أن النبي صلى الله عليه وسلم افتقد ثابت بن قيس ، فقال رجل : يا رسول الله ، أنا أعلم لك عمله .. فأتاه فوجده جالساً في بيته مُسَكِّساً رأسه . فقال له : ما شأنك ؟ فقال : شرٌّ .. كان يرفعُ صوته فوق صوت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقد حبط عمله وهو من أهل النار ..

فأتى الرجلُ النبي صلى الله عليه وسلم ، فأخبره أنه قال كذا وكذا ... فرجع إليه المرة الآخرة ببشارة عظيمة - فقال : « اذهب إليه فقل له : إنك لست من أهل النار ، ولكنك من أهل جنته (١) » .

وجاء في رواية جرير :

قال له النبي صلى الله عليه وسلم : ما يبكيك يا ثابت ؟

فقال رضى الله عنه :

أنا صَيِّيت .. وأتخوف أن تكون هذه الآية نزلت في :

« ... لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ ... » الآية .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « أَمَا تَرْضَى أَنْ تُعِيشَ

حَيِّيداً ، وَتُقْتَلَ شَهِيداً ، وَتَدْخُلَ الْجَنَّةَ ؟ »

فقال : رَضِيتُ ببشرى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا

أرفع صوتي أبداً على صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) .

(١) البخارى : ج ٦ ص ١٧١ (٢) تفسير ابن كثير : ج ٤ ص ٢٧

يقول أنس بن مالك : فكنا نراه يمشي بين أظهرنا ، ونحن نعلم أنه من أهل الجنة ..! ولما كان يوم اليمامة ، كان فينا بعض الانكشاف ، فجاء ثابت بن قيس وقد نحبط ولبس كعنه ، فقال : بسم الله تعوذون أقرانكم .. فقاتلهم حتى قتل ، رضى الله عنه (١) .

قال العلماء : وحكم التأدب بخفض الصوت في مواجهة الرسول صلى الله عليه وسلم يسرى كذلك أمام قبره الشريف ، فيكره رفع الصوت عند قبره صلى الله عليه وسلم كما كان يكره في حياته .

روى أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - سمع صوت رجلين في مسجد النبي صلى الله عليه وسلم قد ارتفعت أصواتهما ..! فجاء فقال : أتدريان أين أنتم ؟

ثم قال : من أين أنتم ؟ قالا : من أهل الطائف . فقال : لو كنتم من أهل المدينة لأوجعتكما (٢) .

* * *

* ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ .

كان من طبيعة العرب مناداة الشخص من بيته في أى وقت من ليل أو نهار . وكانوا أيضا يتنادون من الأماكن البعيدة في المخلاء ، أو من خلف البيوت ، وخاصة الأعراب منهم .. وهكذا فعل وقد تميم حينما نادوا رسول الله صلى الله عليه وسلم من خلف بيوت أرواحه وقت قبولته ، فقالوا : يا محمد ، يا محمد .

(١) مسند الإمام أحمد بن حنبل .

(٢) رواه البزار ، ونقله ابن كثير في تفسيره : ج ٤ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

فأنزل الله سبحانه وتعالى آية :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِنْ وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ . وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ ، وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ^(١) ﴾ .

* * *

* ﴿ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ﴾ .

كان الصحابة يرون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم هو أب كل واحد منهم ، وأن منزله هو منزل الجميع ، وخاصة بعد أن نزل قول الله تعالى :

﴿ النَّبِيُّ أَوْلىٰ بِالْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ ﴾ .
وجاء في بعض القراءات : وهو أب لهم ^(٢) .

فإذا كانت زوجاته أمهاتهم ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أبا لهم ، فبداية تكون بيوته مباحة لهم . فكانوا إذا دخلوا عنده جلسوا وأكلوا وتحدثوا وأطالوا ، ولا بأس عليهم .. غير أنهم نسوا أن الرسول ﷺ بشر مثلم ، وأن له حق الراحة في بيته وحق الائتناس بأهله ، ووجود أى صحابي في البيت يُصادر هذه الحقوق . ولذلك ورد عن أنس بن مالك قال : أعرض رسول الله صلى الله عليه وسلم بيمض نسائه ، فصنعت أم سليم (أم أنس) حَيْسًا (طعاما) ثم جعلته في تَوْر (إناء) فقالت : اذهب بهذا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأقرئه مني السلام ، وأخبره أن هذا مني له قليل .

(١) الحجرات : ٤ ، ٥ (٢) وهي قراءة شاذة بالزيادة .

قال أنس : والناس يومئذ في جهد ، فجئت به ، فقلت :
يا رسول الله ، بعثت بهذا أم سليم إليك وهي تقرئك السلام ،
وتقول : أخبره أن هذا مني له قليل

فنظر إليه صلى الله عليه وسلم ثم قال : « ضعه » .
فوضعه في ناحية البيت . .

ثم قال ﷺ : « اذهب ، فادع لي فلانا وفلانا » . .
فسمي رجلا كثيرين ، وقال ﷺ : « ومن لقيت من المسلمين » .
فدعوت من قال لي ومن لقيت من المسلمين . فجئت والبيت
والسنة والحجرة ملاءى من الناس ، فقلت : يا أبا عثمان كم كانوا ؟
فقال : كانوا زهاء ثلاثمائة .

قال أنس : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « جئ به »
فجئت به إليه ، فوضع يده عليه ودعا وقال ما شاء الله . .
ثم قال صلى الله عليه وسلم : « ليتخلق عشرة عشرة ، وليسموا ،
ولياكل كل إنسان مما يليه . »

فجعلوا يسمون ويأكلون ، حتى أكلوا كلهم . فقال لي رسول الله
صلى الله عليه وسلم : « ارفعه » . قال : فجئت فأخذت التور فنظرت
فيه ، فما أدري : أهو حين وضعته أكثر ، أم حين أخذته ؟ !

قال : وتختلف رجال يتحدثون في بيت رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم التي دخل بها معه مولية
وجيها إلى الحائط ، فأطالوا الحديث فشق ، على رسول الله صلى الله عليه
وسلم ، وكان أشد الناس حياء ، ولو أعلموا كان ذلك عليهم عزيزا .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فسلم على حجره وعلى نسائه .. فلما رأوه قد جاء ظنوا أنهم قد ثقلوا عليه ، ابتدروا الباب فخرجوا ..

وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أرحى الستار ودخل البيت وأنا في الحجرة ؛ فمكث رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته يسيرا .. وأنزل الله عليه القرآن ، فخرج وهو يتلو هذه الآية (١) :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَظِيرٍ لَهُ إِنْهَاءٌ ، وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَأَدْخُلُوا ، فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذَى النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ، إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا (٢) ﴾ .

وانضح للمؤمنين أن زوجات الرسول عليه الصلاة والسلام أمهات لهم من حيث الاحترام وتحريم النكاح فقط ، أما ما بعد ذلك من حجاب وستر ، فقد ضرب الإسلام بذلك حجابا كثيفا بينهم وبين الناس .

(١) ابن أبي حاتم ، نقله عنه ابن كثير : ج ٣ ص ٥٠٤ — والبخارى : ج ٦

ص ١٤٩ ، ط الشعب . (٢) الاحزاب : ٥٣

وفي هذه الآية من الآداب :

- ١ - عدم دخول بيوت النبي ﷺ ، إلا أن يأذن هو .
 - ٢ - الانصراف من البيوت عقب الأكل والإطعام .
 - ٣ - عدم الاستئناس بالأحاديث داخل بيوته ﷺ .
 - ٤ - إذا سُئِلَ أزواجه ﷺ متاعاً ، فمن حلف الحجاب .
 - ٥ - تحريم نكاح أزواجه ﷺ من بعده .
- والأخيرتان من خصوصياته صلى الله عليه وسلم .

* ﴿ ... لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا أَنْظِرْنَا ... ﴾ :

لم يألف العرب مخاطبة الأنبياء ، بل ولم يدركوا كيف يخاطبون ، وكان يهود يسكنون في المدينة وقريباً منها . وهؤلاء^(١) بعث الله منهم عشرات الرسل ، وجعل فيهم كثيراً من الأنبياء ، وهم مع ذلك ينتسبون إلى كتاب موسى : التوراة . من ذلك نرى أن بعض الصحابة كانوا يظنون أن هؤلاء إذا خاطبوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنما يخاطبونه على نمط ما كانت تخاطب به رسالهم وأنبيائهم .. وكان الصحابة يحسنون بهؤلاء المضلين الضالين الظنون . من ذلك ما روى أن رجلاً من يهود بني قينقاع يدعى رفاعة بن زيد ، كان يأتي النبي صلى الله عليه وسلم ، فإذا لقيه وكله قال : أرعني سمعك .

وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تُفخَّم بهداً ، فكان ناس منهم يقولون : اسمع غير مسمع - غير صاغر - وهي كالتى في سورة النساء .. فأوحى الله إلى المؤمنين أن لا يقولوا : راعنا .

(١) أى طائفة اليهود عموماً .

ونزل قوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انْظُرْنَا وَاسْمَعُوا وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ (١) .

فنهى الله تعالى المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين في مقالهم وفعالهم بحسن قصدهم ، وذلك لأن اليهود كانوا يعنون من الكلام ما فيه تورية لما يقصدون من النقيض . فإذا أرادوا أن يقولوا : اسمع لنا ، يقولون : راعنا .. وَيُؤْزُونَ بِالرُّعُونَةِ ، كما قال الله تعالى في سورة النساء :

﴿ مِنْ الَّذِينَ هَادُوا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ ، وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَسْمَعُ غَيْرَ مُسْمِعٍ ، وَرَاعِنَا ، كَيْتَا بِالسِّيْنَتَيْنِ وَطَعْنَا فِي الدِّينِ .. ﴾ (٢) .

وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا إذا سلموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يقولون : السام عليكم - والسام هو الموت . ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بـ : وعليكم (٣) . وهذا الأدب خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم .

* ﴿ ... يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبْدَ لَكُمْ تَسْأَلُكُمْ ﴾ :

من الطبيعي أن المؤمنين يسألون رسولهم صلى الله عليه وسلم عن كل ما يختلج في صدورهم .. هذا لأن الشرع جديد عليهم ، وهم لا يأخذون ولا يعلمون إلا من مصدر واحد ، وهو رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولكن الله أدب المؤمنين بأن لا يتسرعوا في السؤال ؛ بل يصبروا
حتى يحدثهم الرسول صلى الله عليه وسلم عن الشرائع والأحكام .
فقال تعالى : ﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ
كَمَا سَأَلَ مُوسَى مِنْ قَبْلُ ، وَمَنْ يَتَّبِدْ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ
فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ^(١) . ﴾

فنهام في هذه الآية عن كثرة سؤال النبي صلى الله عليه وسلم
عن الأشياء قبل كونها .. كما قال تعالى :

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَنْ أَشْيَاءَ إِنْ تُبَدَّ كُفْرُكُمْ
تَسْأَلُونَ . وَإِنْ تَسْأَلُوا عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ الْقُرْآنُ تُبَدَّ كُفْرُكُمْ ،
عَفَا اللَّهُ عَنْهَا ، وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ^(٢) . ﴾

وجاء في صحيح مسلم :

« ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ
بِكثرةِ سؤَالِهِمْ وَأَخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ! ..
فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ ، فَأَتُوا مِنْهُ مَا أَسْتَطَعْتُمْ ..
وَإِنْ نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ ، فَأَتْتَهُوا ^(٣) . »

ولذلك يقول أنس بن مالك رضى الله عنه :

« نُهِنَا أَنْ نَسْأَلَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنْ شَيْءٍ .. فَكَانَ
يَعِجِبُنَا أَنْ يَأْتِيَ الرَّجُلَ مِنْ أَهْلِ الْبَادِيَةِ فَيَسْأَلُهُ ، وَنَحْنُ نَسْمَعُ ^(٤) . »

(١) البقرة : ١٠٨

(٢) المائدة : ١٠١

(٣) و (٤) أبو يعلى ، نقله عنه ابن كثير : ج ١ ص ١٥٣

ويقول البراء بن عازب : إن كان ليأثني على السنة ، أرجو أن أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشيء ؛ فأتمني منه ، وإن كنا لنتمنى الأعراب (١) .

هذه آداب نزل بها القرآن الكريم ، يأمر الصحابة رضوان الله عليهم جميعاً بأن يعملوا بها . وهامم الصحابة يمتثلونها أشد الامتثال ، وقد يكون منهم من يحبس سؤاله في نفسه ولا يُبديه لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، طاعة لله ، وهيبة لرسول الله صلى الله عليه وسلم . . . ورضى الله عنهم ..

وهذا الحكم عام لجميع الأمة ، علماً بأن المراد من النهي هو السؤال عن الأمور التي تُثير الفتن وتُتلفي الشُّبُه في قلوب الناس ، أو تُعرج وتؤذي شعور أحد من الناس بغير داع لذلك . أما السؤال للتعلم ، فمطلوب شرعاً ، وقد يكون واجباً .

* ﴿ ... وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ ، لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ ... ﴾ .

للإنسان مصالحه الخاصة ، مثل : مزاوله أمور معيشته من صناعة وتجارة ، ورعاية أولاده وأسرته ، وجميع ما يتكسب منه . وقد جعل الشارع الحرية الكاملة للشخص في الهيمنة عليها وتوجيهها على حسب ما تقتضيه مصلحته في دائرة الإسلام . وللأمة مصلحتها العامة كاجتماع الأعياد ، وخطب الجمعة ، وما شاكل ذلك ، فلهذه سميتها الخاص بالنسبة لرسول الله ﷺ فلم يكن لأي صحابي أن ينصرف عنها إلا بعد أخذ الإذن من رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ
وَإِذَا كَانُوا مَعَهُ عَلَى أَمْرٍ جَامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتَّى يَسْتَأْذِنُوهُ .
إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ أُولَئِكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ،
فَإِذَا أَسْتَأْذَنُوكَ لِبَعْضِ شَأْنِهِمْ فَأَذَنَ لِمَنْ شِئْتَ مِنْهُمْ .
وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ اللَّهُ . إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ . (النور : ٦٢)

يقول ابن كثير في تفسيره لهذه الآية :

وهذا أيضا أدب أرشد الله عباده المؤمنين إليه . فكما أمرهم
بالاستئذان عند الدخول ، كذلك أمرهم بالاستئذان عند الانصراف ،
لا سيما إذا كانوا في أمر جامع مع رسول الله صلوات الله وسلامه عليه
من صلاة جمعة ، أو عيد ، أو جماعة ، أو اجتماع في مشورة ، ونحو ذلك ..
أمرهم الله تعالى أن لا يتمرقوا عنه والحالة هذه ، إلا بعد استئذانه
ومشاورته وإلقاء السلام .

فمن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إِذَا أَنْتَهَى أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَجْلِسِ فَلْيُسَلِّمْ ، فَإِذَا أَرَادَ
أَنْ يَقُومَ فَلْيُسَلِّمْ .. فَلَيْسَتْ الْأُولَى بِأَحَقَّ مِنَ الْآخِرَةِ » (١) .
وهذا الحكم عام في كل اجتماع .

* * *

* ﴿ .. لَا تَجْمَعُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ

كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ... ﴾ .

إذا ما أراد الإنسان أن يدعو آخر ويناديه ، فإما أن يناديه باسمه
المجرد أو بكنيته .. وهذه معتادة بين الناس بعضهم مع بعض .

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي (وحسنه) ابن كثير : ج ٣ ص ٣٠٦

وكان الأعراب إذا دَعَوْا رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا له :
يا « محمد » .. بالاسم المجرد ، أو : يا أبا القاسم بالكنية .
ولكن الله أدب المؤمنين أيضاً في أسلوب النداء والدعوة ،
كما أدبهم في طريقة التخاطب والتحدث .. وقال تعالى :

﴿ .. لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا ^(١) ﴾ .
فمن ابن عباس أنهم كانوا يقولون : يا محمد . يا أبا القاسم .
فنهام الله عز وجل عن ذلك ، إعظاماً لنبه صلى الله عليه وسلم .
قال : تقولوا يا نبي الله .. ويا رسول الله .
وقال قتادة :

أمر الله أن يُهاب فيه وأن يُبَجَّل وأن يُعَظَّم وأن يُسَوَّد ^(٢) .
وهذا حكم خاص بالرسول صلى الله عليه وسلم .

* * *

* ﴿ ... اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ... ﴾ :
وأخيراً فلقد بلغت درجة تأديب الله للمؤمنين مع رسوله صلى الله
عليه وسلم : أن كلمهم بالاستجابة له على كل أحوالهم ، حتى في أثناء الصلاة .
وذلك لقوله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ
وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ... ﴾ ^(٣) .

روى البخارى بسنده عن سعيد بن المعلى قال : كنت أصلي
في المسجد .. فدعاني رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فلم أجبه - أو قال :

(١) النور : ٦٣ (٢) ابن كثير : ج ٣ ص ٣٠٦

(٣) الأنفال : ٢٤

لم آت - حتى صليت .. ثم أتيتك فقلت : يا رسول الله . إني كنت أصلي ..
فقال : أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ ﴿ اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ ﴾ .
لذلك قال بعض العلماء : إنه صلى الله عليه وسلم كان إذا دعا
شخصاً وهو يصلي ، يجيبه ويترك الصلاة استجابة له ، وأن الصلاة
لا تبطل بإجابته ، بل له أن يبنى على ما كان صلى ويتم^(١) .
وهذه خصوصية له صلى الله عليه وسلم ..

* * *

* وَجُوبٌ مَحَبَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

إن ما تنعم به البشرية من أنوار الهداية ودلائل الحق وأبواب
الخير ونصاعة العقيدة : يرجع الفضل فيه بعد الله ، إلى خاتم المرسلين
صلى الله عليه وسلم ، الذي أرسله الله رحمة للعالمين .
ولا شك أن القلوب التي اهتدت إلى ربها ، وملاً نور الإيمان
جوانبها ، تدين بحب الله ورسوله ، اعترافاً بفضل الله عليه وسلم
في هداية الخلق إلى صراط الله المستقيم .. ولقد فرض الإسلام بحب
الرسول ، صلى الله عليه وسلم ، بقول الله تعالى :

﴿ قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ
وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ
تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِينُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِّنْ
اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ،
وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ ^(٢) ﴾ .

(١) تفسير المنار : ج ٩ ص ٥٨٣ (٢) سورة التوبة : ٢٤

قال القاضي عياض عقب إيراد هذه الآية : فكفى بهذا حرصاً ونبيها ودلالة وحجة على إزام محبته ، وفرضها ، وعظم حطرها ، واستحقاقه لها صلى الله عليه وسلم ، إذ قرّع الله تعالى من كان ماله وأهله وولده أحب إليه من الله ورسوله ، وأوعدهم بقوله تعالى :

﴿ ... فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ ... ﴾ .

ثم فسّوهم بتمام الآية ، وأعلمهم أنهم ممن ضل ولم يهده الله (١) . فلا يصدق إيمان المؤمن ، ولا يذوق حلاوته ويجد بين جوانحه روعته ، حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ..

فعن أنس رضى الله عنه عن النبی صلى الله عليه وسلم ، قال :

« ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ :

أَنْ يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا ..

وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ ..

وَأَنْ يَكُورَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ ،

كَمَا يَكُورَهُ أَنْ يُقَذَفَ فِي النَّارِ ! » (٢) .

(متفق عليه) .

وعن عبد الله بن هشام قال : كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم ،

وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب .. فقال له عمر : يا رسول الله ! ..

لأنت أحب إلى من كل شيء إلا من نفسي .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لا ، والذي نفسي

بيده ! .. حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ » .

فقال عمر : والله لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَىَّ مِنْ نَفْسِي .

فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « الآن يا عمر .. » (١) .

يعنى الآن صدق إيمانك . فكل مسلم فى قلبه محبة الله ورسوله ، إذ لا يدخل الإسلام إلا بها ، واسكن الناس متفاوتون فى محبته صلى الله عليه وسلم ، بحسب استحضار ما وصل إليهم من جهته من وُجوه النفع الشامل لخير الدارين ، وهو أعظم وجوه الانتفاعات .

ولا شك أن حفظ الصحابة رضى الله عنهم فى المعنى أتم ، لأن هذا ثمرة المعرفة ، وهم بها أعلم من غيرهم ... قال عمرو بن العاص : ما كان أحدٌ أحبَّ إلىَّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أجَلَّ فى عيني منه .. وما كنت أطيق أن أملاً عيني منه إجلالاً له .. حتى لو قيل لى : صِفْهُ .. ما استطعت أن أصفه (٢) .

وقال على بن أبى طالب ، وقد سُئِلَ : كيف كان حبُّكم لرسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : كان رسولُ الله أحبَّ إلينا من أموالنا وأولادنا وآبائنا وأمهاتنا ، وأحب إلينا من الماء البارد على الظم . وروى البيهقي ، عن عروة قال : لما أخرج أهل مكة ريد بن الدثنة (وكان قد أسر يوم الرجيع) من الحرم ليقتلوه . قال له أبو سفيان ابن حرب (وهو يومئذ مشرك) : أنشدك بالله يا زيد ، أتعجب أن مجداً الآن عندنا مكانك ، نضرب عنقه ، وأنت فى أهالك ؟ !

فقال ريد : والله ما أحب أن مجداً فى مكانه الذى هو فيه مقيم تصيبه الشوكة (أى أقل شئ من الأذى) ، وإنى جالس فى أهلى (سالم من الأذى) !

(١) رواه البخارى . (٢) أخرجه مسلم .

فقال أبو سفيان : ما رأيت أحدا من الناس يُحب أحدا ،
كحب أصحاب محمد ﷺ (١) .

وفي القرطبي : إن ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم
— وكان شديد الحب له ، قليل الصبر عنه — أتاه رسول الله صلى الله
عليه وسلم ذات يوم يزوره ، فوجده قد تغير لونه ، ونحل جسمه ،
يعرف في وجهه الحزن .. فقال له : « يا ثوبان . ما غير لوك ؟ »
فقال : يا رسول الله . ما بي ضرر ولا وجع ، غير أني إذا لم أراك
اشتقت إليك ، واستوحشت وحشة شديدة حتى ألقاك .. ثم ذكرت
الآخرة ! وأخاف أن لا أراك هناك ، لأنني عرفت أنك تُرفع مع
النبيين .. وإني إن دخلت الجنة كنت في منزلة هي أدنى من
منزلتك !.. وإن لم أدخل فذلك حين لا أراك أبدا !
فأنزل الله قوله :

﴿ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَٰئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ
عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ
أُولَٰئِكَ رَفِيقًا . ذَٰلِكَ الْفَضْلُ مِنَ اللَّهِ ، وَكَفَىٰ بِاللَّهِ عِلِيمًا ﴾ (٢) .

وذكر ابن ظفر : أن عبد الله بن زيد رضي الله عنه كان يعمل
في جنة (بستان) له . فأتاه ابنه فأخبره أن النبي صلى الله عليه
وسلم توفي ! . فقال عبد الله :

اللهم أذهب بصرى ، حتى لا أرى بعد حبيبي : محمد ﷺ ..
(واستجاب الله لدعوته) فكفَّ بصره (٣) .

(١) المواهب اللدنية للزرقاني ج ٦ ص ٢٩٠ .

(٢) سورة النساء ٦٩ ، ٧٠ . (٣) المواهب ج ٦ ص ٢٩٢ .

* وَجُوبُ طَاعَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالِاقْتِدَاءُ بِهِ :

وإنما فرض الإسلام محبة الرسول صلى الله عليه وسلم على الأمة - ومعنى المحبة : الطاعة - لتكون شريعته وسنته هى الطريق التى نختارها القلوب عقيدة ، وتنطلق بها الأعضاء عملاً ، وليترسّم كل مسلم طريقة حبيبته : سيدنا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ويحسن به الأسوة ، ويكون فى ضميره وواقع عمله نعم القدوة .

يَقُولُ تَعَالَى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ۝ ﴾ (١) .
وهذه هى الشّمار الطبيعية للمحبة ، والطريق السوى للمحبين الذين يظفرون بصحبته يوم القيامة . قال صلى الله عليه وسلم :

« مَنْ أَحَبَّ قَوْمًا عَلَى أَعْمَالِهِمْ ، حُشِرَ مَعَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » .

وروى العسكرى عن الحسن : لا تغتر يا ابن آدم بقوله (أى بقول الرسول صلى الله عليه وسلم) : « أنت مع من أحببت .. »

فمن أحب قوما اتبع آثارهم .. واعلم أنك إن تلتحق بالأخيار حتى تتبع آثارهم وتأخذ فى الاقتداء بسنتهم ، وتُصنِّح وتُمنسى على مناهجهم ، حرصاً على أن تكون منهم (٢) . لقد قرن الله طاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بطاعته ، بل جعلها هى طاعته تبارك وتعالى .

يَقُولُ سُبْحَانَهُ : ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ .. ۝ ﴾ (٣) .

(٢) المواهب اللدنية ج ٦ ص ٢٤٢

(١) سورة الاحزاب : ٢١

(٣) سورة النساء : ٨٠

والرسول صلى الله عليه وسلم يقول :
 «مَنْ أَحَبَّنِي فَقَدْ أَحَبَّ اللَّهَ ، وَمَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ»^(١) .
 وذلك أمر طبيعي ، لأنه عليه الصلاة والسلام يُبَلِّغُ عَنْ رَبِّهِ
 وَيَعْلَمُ أُمِّتَهُ بِمَا يُوحَى إِلَيْهِ : ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى .
 إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾^(٢) .

ومن هنا يقول الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ،
 وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا ﴾^(٣) ... ﴿ .

فمقتضى الإيمان بالله : ربًّا ، وبالإسلام : دينًا ، وبسيدنا محمد
 صلى الله عليه وسلم : رسولًا - أن يُطاع الرسول الأمين ؛ وإلا
 فإن الإيمان بلا إذعان وخُضوع : كَلَا إيمان ...
 قال تعالى : ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ
 فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا
 مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾^(٤) .

وقال تعالى : ﴿ فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ
 أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾^(٥) .
 يقول الصدِّيق : أبو بكر ، رضى الله عنه :

لست تاركًا شيئًا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعمل به
 إلا عملت به . إني أحشى إن تركت شيئًا من أمره أن أزيغ^(٦) .

(١) المواهب : ج ٦ ص ٢٤٠ (٢) سورة النجم : ٣ ، ٤

(٣) سورة الحشر : ٧ (٤) سورة النساء : ٦٥

(٥) سورة البور : ٦٣ (٦) الشفاء : ج ٢ ص ١٤

* وَجُوبُ نُصْرَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

ومن لوازم المحبة الصادقة الإيجابية المستلزمة للطاعة وكلال الأُسوة :
أن يبدل المحب ذات نفسه فداء لإمامه وقائده صلى الله عليه وسلم
وحماية للمبادئ التي حاللت قلبه وملكت مسالك فكره .
قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ
مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا عَنْ رَسُولِ اللَّهِ وَلَا يَرْغَبُوا
بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ... ﴾ (١) .

إن الذين يستجيبون لله ولرسوله ، ويتبعون هديه ، ويحيون
في أنوار رسالته ، وينصرونه ويرفعون بالحق رأيه : هم أهل الفلاح
في الدنيا والآخرة .

قال تعالى : ﴿ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي
يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي الثَّوْرَةِ وَالْإِنجِيلِ ، يَأْمُرُهُمْ
بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ ،
وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي
كَانَتْ عَلَيْهِمْ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا
النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ ، أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ (٢) .

ما اختص الله به رسوله : صلى الله عليه وسلم ،
دون غيره من الأنبياء والمرسلين .

الله سبحانه وتعالى بصطفي^(١) من الملائكة رسلا ومن الناس ،
ليكونوا وسائل تبليغ لدينه ، ووسائل رحمة بينه تعالى وبين عباده .

واختار سبحانه من الرسل جماعة ، تحملوا من الأعباء والمشاق
ما لم يتحمل غيرهم من المرسلين ، وهم أولو العزم ، الذين قال الله
تعالى فيهم :

﴿ ... فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ ^(٢) ... ﴾ .

وقد ذكر الله أسماءهم في قوله تعالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا
مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ ، وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى
وَعِيسَى بْنِ مَرْيَمَ ، وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا ^(٣) ﴾ .

وقد اختص الله سيدنا : محمداً ، صلى الله عليه وسلم بأمر لم ينلها
غيره من الرسل ، زيادة تكريم له ولأمته معه ..

ولذلك قال تعالى :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ... ^(٤) ﴾ .

(١) يختار . (٢) الأحقاف : ٣٥

(٣) الأحزاب : ٧ (٤) آل عمران : ١١٠

وإذا أردنا إحصاء ما احتصّ الله به رسوله : محمداً صلى الله عليه وسلم دون غيره من الأنبياء والمرسلين ؛ فإن القلم يعجز عن استقصاء خصوصياته وفضائله عليه الصلاة والسلام ..!

ولكن حسدنا هنا أن نذكر قطرة من بحر فياض ، مصدّرين بَحَثَنَا بالحديث الصحيح الذي ذكر فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه أعطى حمساً لم يُعطَ أحدٌ قبله : ثم تتبعه ببعض أحاديث ، محاولين ذكر بعض ما احتصّ به لا كله ..!

فمن جابر بن عبد الله ، رضى الله عنهما ، قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أُعْطِيتُ خَمْسًا ، لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ قَبْلِي :

نُصِرْتُ بِالرُّغْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ ،

وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ،

فَأَيُّمَا رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَدْرَكْتُهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ ! ..

وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ ، وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي ! ..

وَكَانَ النَّبِيُّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً ، وَبُعِثْتُ إِلَى

النَّاسِ كَافَّةً ! .. وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ (١) ! .. »

وهذا الحديث ليس للحصر : فليس معناه أنه صلى الله عليه وسلم أعطى هذه الخمس فقط - كما ستري - ولكنه صلى الله عليه وسلم كان يذكر في كل مقام ما يناسبه من الخصوصيات .

(١) متفق عليه ، شرح السكرماني على صحيح البخاري ج ٤ ص ٩٧

وإليك تفصيل بعض ما اختص به صلى الله عليه وسلم .

١ — « نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ » .

الغرض من هذا التعبير : أن أعداءه صلى الله عليه وسلم كانوا يرهبونه وبخافوته مع بعدهم عنه : بحيث لو أراد حربهم لقطع المسافة التي هي بينه وبينهم في شهر بسير الإبل . وقد تدرك الحكمة النبوية في تحديد الشهر إذا علمت : أن الدولتين السكريين اللتين كان يخشى حينئذ بأسمهما ويخاف منهما . وهما : الفرس بالعراق ، والروم بالشام ، لا تكن تزيد المسافة بينه صلى الله عليه وسلم وبين أى منهما أكثر مما ذكر ، وقد كانتا تعلمان خطورته صلى الله عليه وسلم عليهما ، خصوصاً بعد أن دعاها مع غيرها إلى الإسلام ، وبعد أن انتصر على جميع الجزيرة العربية ، ودخل الناس في دين الله أفواجا .

ومع ذلك لم تحاول أى منهما أن تحاربه أو تنال من دولته منالاً . . . وما ذلك إلا بسبب ما ألقى الله في قلوبهما من رعب .

فإن قيل : فلماذا حاربه إذا اليهود وكفار قريش ولم يستسلموا له ؟ فالجواب : أنهم ما حاربوه إلا خوفاً منه : أن يملك ديارهم وأموالهم وأنفسهم ، بعد أن أذن له بالحرب ، وعقد له لواء النصر أينما توجه . . . فالرعب إذاً من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ومن معه ، وخوفهم على مناصبهم وزعاماتهم ، وشعورهم بالحرم الذي وقعوا فيه بسبب ما أوقعوه بالنبي صلى الله عليه وسلم ومن معه من إيذاء : كل ذلك جعلهم على أن يكابروا بجمية الجاهلية وادعاء القوة والمنعة ، وما هم منهما في شيء ، لأن الرعب كان يزلزل قلوبهم ويفرّى أكبادهم . . .

٢ ، ٣ - « وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا ... » :

كانت الأمم السابقة ، لا تصلي إلا في أما كن العبادة : كالكنائس والبيع ، ولا تتطهر إلا بالماء .. أما أمتنا : أمة رسول الله ، محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم ، فقد ميزها الله بخصوصيتين :

١ - أداء الصلاة في أى مكان من الأرض .

٢ - والتطهر بجنس الأرض عند فقد الماء :

﴿ ... فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا .. ﴾

وقال الحافظ بن حجر في الفتح : ويؤيده رواية عمرو بن شعيب بلفظ :

« وَكَانَ مَنْ قَبْلِي ، إِنَّمَا يُصَلُّونَ فِي كَنَائِسِهِمْ » .

وروى النزار عن ابن عباس رضى الله عنهما :

« وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ يُصَلِّي ، حَتَّى يَبْلُغَ مِحْرَابَهُ ^(١) »

٤ - « وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ » :

الغنائم : هى الأسلاب التى تؤخذ من الكفار عقب الجهاد والانتصار . وكانت محرمة على الأنبياء ، وعلى المجاهدين معهم فى الأمم السابقة ، وكانت تأتى الناس لإحراقها ، ولا يستفيد منها الأعداء ، ولا تعود أدنى فائدة منها على المجاهدين .

فلما جاء الإسلام : منح الله نبينا صلى الله عليه وسلم ، حق الاستفادة بالغنيمة ، وأنزل آيات تفصل قسمتها على المجاهدين .

جاء في صحيح البخارى :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ : لَا يَتَّبِعْنِي رَجُلٌ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ ^(١) ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَتَّبِعَنِي بِهَا ^(٢) وَلَمَّا يَبْنِ بِهَا ، وَلَا أَحَدٌ بَنَى مُيُوتًا وَلَمْ يَرْفَعْ سُقُوفَهَا ، وَلَا أَحَدٌ اشْتَرَى غَنَمًا أَوْ خَلِفَاتٍ (بفتح الخاء وكسر اللام) وَهُوَ يَنْتَظِرُ وَلادَتَهَا ، فَغَزَا ، فَدَنَا مِنَ الْقَرْيَةِ صَلَاةَ الْعَصْرِ أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ : إِنَّكَ مَأْمُورَةٌ ، وَأَنَا مَأْمُورٌ . . . اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيْنَا . فَحَبِسَتْ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ !! فَجَمَعَ الْغَنَائِمَ ، فَجَاءَتْ : يَعْنِي النَّارَ ، لِسَأْكُلَهَا فَلَمْ تَطْعَمْهَا . . . فَقَالَ : إِنَّ فِيكُمْ غُلُولًا : فَلْيَبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ ، فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ !! فَقَالَ : فِيكُمْ الْغُلُولُ ، فَلْتَبَايِعْنِي قَبِيلَتِكَ . فَلَزِقَتْ يَدُ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ بِيَدِهِ . . . فَقَالَ : فِيكُمْ الْغُلُولُ !! فَجَاءُوا بِرَأْسٍ مِثْلِ رَأْسِ الْبَقَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ ، فَوَضَعُوهَا ، فَجَاءَتْ النَّارُ فَأَكَلَتْهَا . . .

ثُمَّ أَحَلَّ اللَّهُ لَنَا الْغَنَائِمَ :

رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجَزَنَا فَأَحَلَّهَا لَنَا ^(٣) . »

(١) عقد عليها . (٢) يدخل بها .

(٣) الكرمانى على البخارى : ج ١٣ ص ٩٥

٤ - « وَبُعِثْتُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً » :

وهذه حاصية أخرى ، وهى من الخصائص التى فضل الله بها رسوله صلى الله عليه وسلم على سائر الأنبياء ، وذلك لشمول دعوته : الأسود والأحمر ، والعربى والعجمى ، والإنس والجن . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ^(١) ﴾ . وقال تعالى : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ^(٢) ﴾ .

٥ - « وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ » :

والمراد بها : الشفاعة العظمى ، لا شفاعة خاصة ، فإن الشفاعة الخاصة : أعطيها جميع الأنبياء لأمرهم ، كما أعطيها العلماء العاملين والصدّيقون والشهداء . أما الشفاعة العظمى ، وهى الشفاعة عند الله تعالى من أجل جميع الأمم ، فلم يُعطيها غير نبينا محمد صلى الله عليه وسلم . قال الله تعالى : ﴿ وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبَّحْدُ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ ، عَسَى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ^(٣) ﴾ .

قال الإمام ابن كثير : أى افعّل الذى أمرتك به ، لنقيمتك يوم القيامة مقاماً محموداً ، يحمّدك فيه الخلائق كلّهم ، وخالقهم تبارك وتعالى . قال ابن جرير : قال أ كثر أهل التأويل : ذلك هو المقام الذى يقومه محمد صلى الله عليه وسلم يوم القيامة للشفاعة للناس ، ليرحمهم ربهم من عظيم ما هم فيه من شدة ذلك اليوم .

(١) ساء : ٢٨ (٢) الفرقان : ١ (٣) الإسراء : ٧٩

وقال ابن عباس : هذا المقام المحمود : مقام الشفاعة ، وكذا قال ابن أبي نجيح عن مجاهد ، وقاله الحسن البصري (١) .
وعن ابن عمر رضى الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :
« إِنَّ الشَّمْسَ تَدُوتُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، حَتَّى يَبْلُغَ الْعَرَقُ نِصْفَ الْأُذُنِ ! . فَبَيْنَا هُمْ كَذَلِكَ : اسْتَغَاثُوا بِأَدَمَ فَيَقُولُ : كُنْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ ! . ثُمَّ بِمُوسَى فَيَقُولُ كَذَلِكَ ثُمَّ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ ، فَيَشْفَعُ لِيُقْضَى بَيْنَ الْخَلْقِ ، فَيَمْشِي حَتَّى يَأْخُذَ بِحَلَقَةِ بَابِ الْجَنَّةِ ! فَيَوْمِئِذٍ : يَبْعَثُهُ اللَّهُ مَقَامًا مَحْمُودًا : يَحْمَدُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ كُلُّهُمْ (٢) » .
ونذكر لك بعض ما اختص به صلى الله عليه وسلم ، مما جاء في غير الحديث السابق .

٦ - « أُعْطِيَتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ » :

قال عليه - وآله وصحبه - الصلاة والسلام :

« أُعْطِيَتْ جَوَامِعُ الْكَلِمِ ، وَاخْتَصِرَ لِي الْكَلَامُ اخْتِصَارًا » .

(ومعنى ذلك : أنه صلى الله عليه وسلم : أنعم الله عليه بأن

ينطق بقليل الكلام الذى يحمل كثير المعانى) .

وهذه الخصوصية : تتمثل فى كل أحاديثه وكلماته ، لذلك نرى

شراح الحديث يستخلصون من العبارة الواحدة أحكاماً وحِكماً ونبراً كثيرة ، وما ذكروا إلا القليل من مكنون الحكم وجواهر الكلام .

(١) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٥٥ .

(٢) أخرجه البخارى وابن جرير - الدين الخالص : ج ١ ص ١٠١ .

وإليك أمثلة موحزة من أقواله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ » ، « الْيَدُ الْعُلْيَا خَيْرٌ مِنَ الْيَدِ السُّفْلَى » ، « إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الرَّفْقَ فِي الْأَمْرِ كُلِّهِ » ، « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ » .

٧ - وَخَتِمَتْ بِهِ النَّبُوءَةُ وَالرَّسَالَةُ :

لما كانت كل الرسائل قبل الإسلام خاصة فئة معينة من الناس ، وكان الإسلام عامًّا للبشر كلهم على اختلاف ألوانهم وأجناسهم . فإن محمداً صلى الله عليه وسلم قد اصطفاه ربه ليكون خاتماً للمرسلين كلهم ، والنبیین جميعهم .

قال تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ ، وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ، وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ۝ ﴾^(١) . ويقول الإمام ابن كثير : هذه الآية نصّ في أنه لا نبي بعده . وإذا كان لا نبي بعده ، فلا رسول بالطريق الأولى والأخرى ، لأن مقام الرسالة أخصّ من مقام النبوة . فإن كل رسول نبي ولا ينمكس^(٢) . وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال :

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« مَثَلِي وَمَثَلُ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي ، كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى بَيْتًا ، فَأَحْسَنَهُ وَأَكْمَلَهُ ، إِلَّا مَوْضِعَ لَبْنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ .. »

فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَتَعَجَّبُونَ لَهُ ،
وَيَقُولُونَ : هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّيْنَةُ ؟
فَأَنَا تِلْكَ اللَّيْنَةُ !.. وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ !..^(١)
وعن أنس بن مالك رضى الله عنه ، قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدْ انْقَطَعَتْ ،
فَلَا رَسُولَ يَعْدِي وَلَا نَبِيٍّ »^(٢) .

٨ — وَهُوَ أَفْضَلُ الْمُرْسَلِينَ عِنْدَ اللَّهِ :

وإذا كان رسول الله ﷺ خاتم النبيين ، ورحمة للعالمين ، وبعثه
الله بشرع كامل عظيم ، فقد فضله ربنا على جميع المرسلين ، وكل النبيين .
ومبدأ تفضيل بعض الرسل على بعض مقرر في كتاب الله تعالى :
قال تعالى : ﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ ﴾^(٣) .
وقال تعالى : ﴿ وَرَبُّكَ أَعْلَمُ بِمَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ .
وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ ﴾^(٤) .
وقال تعالى : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ، تَأْمُرُونَ
بِالْعُرُوفِ ، وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾^(٥) .

(١) رواه البخارى ومسلم (الفتح الربانى : ج ٥ ص ٢٦٧ ، ٢٦٨)

(٢) رواه أحمد والترمذى والحاكم بإسناد صحيح (الزرقانى

على المواهب : ج ٥ ص ٢٦٧) (٣) البقرة : ٢٥٣

(٤) الإسراء : ٥٥ (٥) آل عمران : ١١٠

يقول ابن كثير : وإنما حازت هذه الأمة قصب السبق إلى
الخيرات بنبيها محمد صلوات الله وسلامه عليه . فإنه أشرف خلق الله
وأكرم الرسل على الله ، وبعثه الله بشرع كامل عظيم لم يُعطه نبي
قبله ، ولا رسول من الرسل (١) .

وعن أبي سعيد الخدري [سعد بن مالك] ، قال :
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
« أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَلَا فَخْرَ ..
وَيَبْدِي لَوَاءَ الْحَمْدِ ، وَلَا فَخْرَ ..
وَمَا مِنْ نَبِيٍّ : آدَمُ قَبْلَ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لَوَائِي ..
وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ ، وَلَا فَخْرَ ..
وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفِّعٍ ، وَلَا فَخْرَ .. » (٢)

* * *

* مُحَمَّدٌ الرَّبَّانِيُّ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .
كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ربّانياً في كل شيء :
في حركاته وسكناته ، في عبادته ومعاملاته ، في أقواله وأفعاله ،
وفي أحواله كلها . فكان دائم المراقبة لربه والذكر له ، والعمل على
مرضاته . وكان نطقه ذكراً ، وصمته فكراً ، وحديثه عبّراً .. ملك
عليه حب ربه والخوف منه قلبه ومشاعره ، وصارت حواسه كلها في
خدمة العلى الأعلى . فله : رَبُّهُ ما يعمل ، ولله ما يترك ! .
عبد الله حتى تورّمت قدماه .. فلما سُئِلَ عن السبب ، قال :
« أَفَلَا أكون عبداً شكوراً ؟ »

وخرج من الدنيا وليس في يديه شيء ، مع كثرة ما فتح له من الدنيا وما ألقى بين يديه من الغنائم .
وإليك بعض تفصيل ما أجمل :

* حُبُّهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - لِرَبِّهِ :

لم يكن حبه صلى الله عليه وسلم لشيء في الحياة - أيًا ما كان - يعدل حبه لله . . . وما أحب شيئًا ولا أحدًا ، إلا لأن الله يحبه . . . وما أبغض شيئًا ولا أحدًا ، إلا لبغض الله إياه . . . ومع ذلك كان عليه الصلاة والسلام يطلب من الله - جل وعلا - أن يرزقه المزيد من هذا الحب . . . وكان يهتف داعيًا ربه - عز وجل - فيقول :

« اللَّهُمَّ ارْزُقْنِي حُبَّكَ ، وَحُبَّ مَنْ أَحَبَّكَ ،

وَحُبَّ مَا يُقَرِّبُنِي إِلَى حُبِّكَ . . . »

وَاجْعَلْ حُبَّكَ أَحَبَّ إِلَيَّ مِنَ الْمَاءِ الْبَارِدِ ^(١) .

وكان كثيرًا ما يقول في دعائه أيضًا : « اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ ، وَبَرْدَ الْعَبْشِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَلَذَّةَ النَّظَرِ إِلَى وَجْهِكَ الْكَرِيمِ ، وَالشَّوْقَ إِلَى لِقَائِكَ ^(٢) ... » .

* تَعْظِيمُهُ ﷺ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :

والعل حب سيدنا محمد لربه - عز وجل - هو السر أيضًا في أنه كان يعظم كل ما يتصل بالله وحده . فإذا واجبه أحد بأذى ، فإن عفوه وصفحه يسبقان غضبه وانتقامه .

(١) رواه أحمد - إحياء علوم الدين : ج ٤ ص ٣١٥

(٢) إحياء علوم الدين : ج ٤ ص ٢٨٧

أَمَّا إِذَا انْتَهَيْتَ حُرُمَاتِ اللَّهِ - عز وجل - أَوْ اسْتَبَيْعْتَ
مَحَارِمَهُ ، فَإِنَّهُ يَغْضِبُ لَذَلِكَ غَضِبًا شَدِيدًا وَيَقُومُ يَنْتَصِرُ اللَّهُ ، فَلَا تَسْتَطِيعُ
أَيَّةَ قُوَّةٍ أَنْ تُثْنِيَهُ عَنْ عَزَمِهِ ، أَوْ تَحُولَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْإِنْتِصَارِ لِلَّهِ .
فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : مَا ضَرَبَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا قَطُّ بِيَدِهِ ، وَلَا امْرَأَةً وَلَا خَادِمًا ، إِلَّا أَنْ يُجَاهِدَ فِي
سَبِيلِ اللَّهِ .. وَمَا نِيلَ مِنْهُ شَيْءٌ قَطُّ فَيَنْتَقِمَ مِنْهُ لِنَفْسِهِ ، إِلَّا أَنْ يُنْتَهَكَ
شَيْءٌ مِنْ مَحَارِمِ اللَّهِ ، فَيَنْتَقِمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ (١) .

* خَوْفُهُ ﷺ مِنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ :

وَلَمَّا كَانَتْ مَعْرِفَةُ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكَامِلَةَ بِاللَّهِ
وَصِفَاتِهِ قَدْ دَفَعَتْهُ إِلَى حُبِّهِ هَذَا الْحُبُّ الْعَظِيمُ ، حَتَّى أَصْبَحَ لَا يَجِدُ
السَّعَادَةَ وَالْإِطْمِئْنَانِ إِلَّا فِي عِبَادَتِهِ وَبَيْنَ يَدَيْهِ ، فَإِنَّ هَذِهِ الْمَعْرِفَةَ الْكَامِلَةَ
بِعَيْنِهَا هِيَ الَّتِي أَوْرَثَتْهُ جَلَالَ الْخَوْفِ وَالْهِيبَةِ مِنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ .

عَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ : صَنَعَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ
أَمْرًا فَرَخَّصَ (٢) فِيهِ .. فَبَلَغَ ذَلِكَ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ
وَالسَّلَامُ ، فَكْرَهُوهُ وَتَنَزَّهُوا عَنْهُ .. فَبَلَغَهُ ذَلِكَ ، فَقَامَ حَاطِيًا ، فَقَالَ :
« مَا بَالُ رَجَالٍ بَلَغَهُمْ عَنِّي أَنِّي تَرَخَّصْتُ فِي أَمْرٍ .. فَكْرَهُوهُ
وَتَنَزَّهُوا عَنْهُ ۚ فَوَاللَّهِ لَا نَأْأَعْلَهُمْ بِاللَّهِ ، وَأَشَدَّهُمْ لَهْ خَشْيَةً (٣) » .
وَكَانَ سَيِّدِنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا وَصَفَهُ « أَبُو هَالَةَ » :
مُتَوَاصِلُ الْأَحْزَانِ ، دَائِمُ الْفِكْرَةِ ، لَيْسَتْ لَهُ رَاحَةٌ (٤) ..

(١) التاج : ج ٣ ص ٢٥٧ (٢) لم يشدد فيه .

(٣) لم يفعلوه كما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم .

(٤) رواه مسلم - التاج : ج ٣ ص ٢٥٧ (٥) الشفا : ج ١ ص ١١٣

وكان صلى الله عليه وسلم إذا رأى عاملاً من العوامل التي عذبت بها الأمم السابقة امتنع لونه وارتعدت فرائصه خوفاً ووجلاً ، ووقف يبتهل إلى الله ويتضرع إليه ويستعيز به من عذابه ..!

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان الرسول صلى الله عليه وسلم إذا رأى غيماً أو ريحاً ، عُرِفَ ذلك في وجهه .. فقلت : يا رسول الله . الناس إذا رأوا الغيم ، فرحوا ورجوا أن يكون فيه المطر ، وإذا رأيت أنت عُرِفَ في وجهك الكراهة ! فقال : « يا عائشة ، ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب ..! وقد عذب قومٌ بالريح ، وقد رأى قومٌ العذاب فقالوا : هذا عارضٌ ممطرنا (١) » .

وعن سالم بن عبد الله عن أبيه قال : كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا سمع صوت الرعد والصواعق قال :
« اللَّهُمَّ لَا تَقْتُلْنَا بِغَضَبِكَ ،

وَلَا تُهْلِكْنَا بِعَذَابِكَ ، وَعَافِنَا قَبْلَ ذَلِكَ (٢) » .

هذه الخشية الشديدة كانت تُلارم النبي صلى الله عليه وسلم في جميع أوقاته وأحواله ، حتى في أكثر حالاته قرباً إلى الله عز وجل .
عن عبد الله بن الشَّخِير ، قال : أتيت رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، فقام يصلي ولجوفه أزيز كأزيز المرجل (٣) ..!

وعن عوف بن مالك قال : كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم .. فاستأذنته ، ثم توضأ ، ثم قام يصلي .. فقامت معه .. فبدأ فاستفتح البقرة ، فلا يمر بآية رحمة إلا وقف فسأل ، ولا يمر بآية عذاب إلا وقف فتعوذ .

(١) الوفا : ج ٢ ص ٥٣٨ (٢) المصدر السابق .

(٣) الشفا : ج ١ ص ١١٣ ، والأزيز هو : صوت غليان القدر .

ثم ركع فمكث بقدر قيامه يقول :
« سُبْحَانَ ذِي الْجَبَرُوتِ وَالْمَلَكُوتِ وَالْعَظَمَةِ ! »
ثم سجد وقال مثل ذلك ، ثم قرأ آل عمران ، ثم سورة سورة
يفعل مثل ذلك^(١) ..!

وعن عائشة رضى الله عنها ، قالت :
كنت نائمة إلى جنب النبي صلى الله عليه وسلم ، ففقدته من
الليل ، فوقعت يدي على قدميه وهو ساجد يقول :
« أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ ، وَبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ .
لَا أُحْيِي نَنَاءً عَلَيْكَ ! أَنْتَ كَمَا أَتْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ^(٢) ..! »
وهكذا كان رسول الله صلى الله عليه وسلم دائم الخوف من الله
عن علم ويقين ..! قال الإمام الغزالي في الإحياء :
في غزوة بدر وقف عليه الصلاة والسلام يدعو ويقول : « اللهم
إن تهلك هذه العصابة ، لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك ! »
فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه :

دع عنك مناشدتك ربك ، فإنه وافٍ لك بما وعدك .
فكان مقام الصديق رضى الله عنه مقام الثقة بوعد الله ..
وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مسكر
الله ، وهو أتم ، لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى
وحفايا أفعاله ، ومعاني صفاته التي يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمسكر !
وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى^(٣) اه .

(١) المصدر السابق . (٢) رواه الترمذى والنسائى - التاج :

ج ٥ ص ١٣٣ (٣) إحياء علوم الدين : ج ٤ ص ١٦٨

* عِبَادَتُهُ ﷺ لِرَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ :

ومن كمال ربانيتها صلى الله عليه وسلم ، وأثر حبه لله ، وحوفه منه ، وتعظيمه له : أنه عليه الصلاة والسلام كان لا يجد سعادة نفسه وحياته قلبه ونعيم روحه وقرّة عينه في شيء - مثلما يجده في موقف واحد من مواقف عبادته لله سبحانه وتعالى : يقف بين يدي محبوبه الكريم ، يتضرع إليه ويدعوه ويُناجيه .. فإذا سجد وأطال السجود ، وإذا خشعت جوارحه واستسكنت ، وإذا سمع خفقان قلبه وصوت ضراسته ونشيج بكائه - فذلك كله لأنه في غمرة شوق جارف وحب عظيم ..

عن عطاء قال : دخلت أنا وعبد الله بن عمر ، وعبيد بن عمير ، على عائشة رضي الله عنها .. فقال ابن عمر : حدثيني بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم ..

فبكت ، ثم قالت : كل أمره كان عجبا ..
أتاني في ليلتي ، حتى إذا دخل معي في لحاف ، وألصق جلده بجلدي ، فقال لي : « يا عائشة ، أَتَأْذِينِ لِي فِي عِبَادَةِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ؟ »
فقلت : إني لأحب قُرْبَكَ وهواك^(١) .. قالت : فقام إلى قُرْبَةِ
في البيت ، فلم يكثر صبّ الماء ، ثم قام فقرأ القرآن .
قالت : ثم بكى حتى رأيت دموعه قد بليت حنجرتَه^(٢) ..
ثم اتكأ على جنبه الأيمن ، ثم وضع يده اليمنى تحت خده ،
ثم بكى حتى رأيت دموعه قد بليت الأرض ..
فجاء بلال يؤذنه بالصلاة ، فوجده يبكي ..

(١) تقصد : أحب قربك مني ، وأحب ما تهواه .

(٢) الحجرة : معقد الإزار .

فقال : يا رسول الله !

أتبكي ، وقد عفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

فقال : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟ »

ثم قال عليه الصلاة والسلام :

« وَمَالِيَ لَا أَبْكِي ، وَفَدَّ أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيَّ اللَّيْلَةَ :

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴾ .. « الآيات .

ثم قال عليه الصلاة والسلام :

« وَيَلُّ لِمَنْ قَرَأَهَا وَلَمْ يَتَذَكَّرْهَا ^(١) ..! »

وعن عليّ كرم الله وجهه قال : لقد رأيتنا وما فينا قائم إلا

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يصلي ويبكي ، حتى أصبح ^(٢) ..!

وإذا كانت الصلاة ، وهي عماد الدين - هي العبادة التي يكون

المرء فيها أقرب إلى الله عز وجل من غيرها ، فقد كان عليه الصلاة

والسلام يُعافظ عليها ويكثر منها ، ويُدأوم عليها ، ويجد راحة

نفسه واطمئنان قلبه في إقامتها .

عن أنس رضى الله عنه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

« حُبُّ إِلَيَّ الطَّيِّبُ وَالنِّسَاءُ .

وَجُعِلَتْ قُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ ^(٣) » .

(١) الوفا بأحوال المصطفى ج ٢ ص ٥٣٩

(٢) يعني ليلة بدر - الوفا بأحوال المصطفى ج ٢ ص ٥٣٩ .

(٣) رواه الإمام أحمد - راجع ابن كثير : ج ٣ ص ٢٣٨

وكان عليه الصلاة والسلام إذا حصرت الصلاة يقول لمؤذنه بلال :

« قُمْ يَا بِلَالُ ، فَأَرِحْنَا بِالصَّلَاةِ ^(١) » .

كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يحب الله حباً جمّاً ، ويحب دائماً أن يكون بمحضرة و بين يديه يدعوهُ ويُناجيه . . . وعلى قدر حبه لله كانت عبادته عليه الصلاة والسلام ، ولأجل أن حبه لله لا يعدله حب على الإطلاق ، فقد كانت عبادته عليه الصلاة والسلام كذلك ، لا تعدلها عبادة على الإطلاق ، لا كمّاً ولا كيفاً . . . فمن زياد ، قال : سمعت المغيرة يقول : إن كان النبي صلى الله عليه وسلم آليقوم ليصلي حتى ترم قدماه . . . وفي رواية حتى تنطط ^(٢) قدماه ، فيقال له ^(٣) .

فيقول عليه السلام : « أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا ؟ »

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : كان عمل رسول الله صلى الله

عليه وسلم ديمة ^(٤) . . . وأيكم يطيق ما كان يطيق ^(٥) ؟ !

وفي كيفية هذه العبادة ، تقول رضى الله عنها : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يصلي إحدى عشرة ركعة - أى كل ليلة يتعبد بها - كانت تلك صلاته . يسجد السجدة من ذلك : قدر ما يقرأ أحدكم خمسين آية ، قبل أن يرفع رأسه ، ويركع ركعتين قبل صلاة العجر ، ثم يضطجع على شقّه الأيمن حتى يأتيه المنادى للصلاة ^(٦) .

(١) رواه الإمام أحمد - ابن كثير : ج ٣ ص ٢٣٨ (٢) تنشق .

(٣) معول القول محذوف تقديره : غفر الله لك ما تقدم من ذنبك

وما تأخر ، فلم تتعب نفسك هكذا ؟

(٤) ديمة ، تعنى دائمة . (٥) الشفا : ج ١ ص ١١٢

(٦) السكرمانى على البخارى : ج ٦ ص ١٨٦

ويقول حذيفة رضى الله عنه أيضاً : قمت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات ليلة .. فقرأ السبع الطوال في سبع ركعات ..!

وكان إذا رفع رأسه من الركوع قال : « سَمِعَ اللَّهُ لِمَنْ حَمِدَهُ » . ثم قال : « الْحَمْدُ لِلَّهِ ذِي الْمَلَكُوتِ وَالْجَبَرُوتِ ، وَالْكَِبَرِيَاءِ وَالْعَظَمَةِ » .

وكان ركوعه مثل قيامه ، وسجوده مثل ركوعه ..! فانصرفت وقد كادت تنكسر رجلاي (١) ..!

وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أكثر طاعة لله على نحو ما قدمنا ، لأنه أكثر الخلق حباً لله ..! فهو عليه الصلاة والسلام يقوم بالواجبات والتكاليف قياماً مُجِبِّ مَفْطُورٍ ، لا قيام مُكَلَّفٍ مَأْمُورٍ ..! ولهذا كان يأخذ طريقه إلى أشق التكاليف في ابتهاج وفرح ؛ لأن هذه التكاليف أصبحت شغله الذي يأنس به ومعه ؛ فهو به ذاهب عن نفسه ، متصل يذكر ربه ، قائم بأداء حقه ، ناظر إليه بقلبه ..! فإن تكلم فبالله ، وإن نطق فعن الله ، وإن تحرك فبأمر الله ، وإن سكن فمع الله ، فهو لله ، وبالله ، ومع الله ..! . عن أبي هريرة رضى الله عنه ، قال :

نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوصال في الصوم . فقال له رجل من المسلمين : إنك تواصل يا رسول الله . قال : « وَأَيُّكُمْ مِثْلِي ؟ إِنِّي أَيْتُ عِنْدَ رَبِّي : يُطْعِمُنِي وَيَسْقِيْنِي ..! » (٢) .

(١) ابن كثير : ج ٣ ص ٥٨٣ (٢) التاج الجامع للأصول : ج ٥ ص ١٣٩

والإمام ابن القيم رحمه الله تعليق رائع على هذا الحديث الشريف
قال ابن القيم : وقد اختلف الناس في هدا الطعام والشراب
المذكورين على قولين : أحدهما : إنه طعام وشراب حسنى للفم ، قالوا .
وهذه حقيقة اللفظ . والثانى أن المراد ما يُغذّيه الله به من المعارف ،
وما يُهَيِّض على قلبه من لذة المناجاة ، وما يجده من قُرّة عينه بقربه
وتسليمه بحبه والشوق إليه ، وتوابع ذلك من الأحوال التى هى
غذاء القلوب ، ونعيم الأرواح ، وقرة العين ، وبهجة النفوس .
وقد يقوى هذا الغذاء ، حتى يغنى عن غذاء الأجساد مدة من
الزمان ١ . ومن له أدنى تجربة وشوق ، يعلم استغناء الجسم بغذاء
القلب والروح عن كثير من الغذاء الحيوانى ١ .
ثم رجّح ابن القيم هذا التخريج الأخير ، وقال : لو كان الطعام
والشراب على الحقيقة لما كان صائما ، فضلا عن كونه مواصلا (١) . اهـ .
وما أصدق ما قال فيه الصحابى الجليل . عبد الله بن رواحة ،
رضى الله عنه ، حينما وصفه :

وَفِينَا رَسُولُ اللَّهِ يَشْلُو كِتَابَهُ

إِذَا انْشَقَّ مَعْرُوفٌ (٢) مِّنَ الصُّبْحِ سَاطِعُ

أَرَانَا الْهَدَى بَعْدَ الْعَمَى فَقُلُوبُنَا

بِهِ مُوقِنَاتٌ : أَنَّ مَا قَالَ وَاقِعُ

يَهَيْتُ يُجَافِي جَنْبَهُ عَنْ فِرَاشِهِ

إِذَا اسْتَثْقَلَتْ بِالْمُشْرِكِينَ الْمَضَاجِعُ (٣)

(١) زاد المعاد : ج ١ ص ١٥٤ ، ١٥٥ (٢) يقصد إذا طلع الفجر

(٣) ابن كثير : ج ٣ ص ٤٥٩

وهكذا نجد أن سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم قدّر الله حق قدره ، فأحبه أخلص الحب ، وعبدته أصدق العبادة ..
ولعل حبه لله عز وجل هو السر في أنه كان يستسهل للصعب ،
ما دام في سبيل الله عز وجل ..

فعندما خرج إلى الطائف يدعو « ثقيفا » إلى الإسلام ، ردّوا عليه
رداً قبيحاً ، وأغروا به سفهاءهم ، فجملوا يرمونه بالحجارة ، حتى
إن رجلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتدميان ..

فلجأ إلى حائط (بُستان) فاحتّمى فيه .. فلما اطمأن رفع
رأسه إلى السماء ، ضارعا في شكاية وألم ، فقال :

« اللَّهُمَّ إِنِّي أَشْكُو إِلَيْكَ ضَعْفَ قُوَّتِي ، وَقِلَّةَ حِيلَتِي ،

وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ..

أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ وَأَنْتَ رَبِّي . إِلَى مَنْ تَكِلْنِي ؟

إِلَى بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي ، أَوْ إِلَى عَدُوٍّ مَلَكَتْهُ أَمْرِي ؟

إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ ، فَلَا أُبَالِي ^(١) .. »

أثارت المحنة أشجانه عليه الصلاة والسلام ، فدعا ربه ومحبيه
جل وعلا بهذا الدعاء الذي يقطع نياط القلوب ! وفي العبارة الأخيرة :

« إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ غَضَبٌ عَلَيَّ فَلَا أُبَالِي » يظهر حب سيدنا محمد صلى
الله عليه وسلم لربه ، كما يظهر نور الشمس في رائعة النهار ..

إنه لا يخشى الصعاب ، ولا يخاف الألم إلا إذا كان تعبيراً عن
غضب الله .. أما إذا لم يكن كذلك فمرحباً بالمتاعب ، ومرحباً بالألم ،
ومرحباً بكل ما يكيد به السفهاء ، ما دام ذلك في سبيل الله وفي سبيل مرضاته !

جملة من أخلاق الرسول

صلى الله عليه وسلم

مقدمة : هل يستطيع بشرٌ كائنًا من كان أن يتمثل خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد صنعه ربه على عينه : يحوطه برعايته ، ويشمله بلطفه ورحمته ، ويخصه بعيم فضله وكرامته ، ويؤدبه فجمع له رفيع الخصال ونهاية عظمة الأخلاق ، حتى وصفه بقوله تعالى :

﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ^(١) ﴾ .

ولقد عرف صلى الله عليه وسلم فضل الله عليه ، وافتخر به ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أَدَّبَنِي رَبِّي ، فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي ^(٢) » . ولقد كانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم استحابات نفسية وقولية وعملية لما يوحى إليه ربه في القرآن . وإنا لنهم هذه الحقيقة واضحة ، كما تجلوها لنا السيدة عائشة : أم المؤمنين ، رضى الله عنها ، حينما تسأل عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتقول : كان خلقه القرآن . أما تقرأ قول الله عز وجل : ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ ^(٣) ﴾ . وهى رضى الله عنها التى تحدثت عنه صلى الله عليه وسلم ، ذات مرة ، فقالت : ما كان أحدٌ أحسنَ خلقًا من رسول الله صلى الله عليه وسلم . ما دعاه أحدٌ من أصحابه ولا أهل بيته ، إلا قال : « لبيك ^(٤) » ..

(١) سورة « ن » : ٤

(٢) الجامع الصغير : ج ١ ص ٢١ عن ابن السمعاني فى أدب

الإملاء عن ابن مسعود . (٣) الفتح الربانى ج ٢ ص ١٧

(٤) رواه أبو نعيم فى دلائل النبوة ص ٢١ ج ١ شرح الشفا .

وعن عبد الله بن عمرو، رضى الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن فاحشاً ولا متفحشاً، وكان يقول :
« خِيَارُكُمْ : أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقاً ^(١) » .

وعن أنس رضى الله عنه قال :
لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم سبباً ولا لعاناً ولا فحاشاً ^(٢) .
وقد كان خلقه صلى الله عليه وسلم السبب المباشرة في إسلام الكثيرين ،
وفي حبر الهندى - ملك عمان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم - لما بلغه أن الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو إلى الإسلام ،
قال الهندى : والله لقد داني على هذا النبی الأُمى أنه لا يأمر بخيرٍ
إلا كان أول آخذ به ..! ولا ينهى عن شرٍّ إلا كان أول تارك له ..!
وأنه يغلب فلا يبطر ، ويُغلب فلا يضجر ، وبى بالعهد ، وينجز
الموعود ..! وأشهد أنه نبي ^(٣) .

وإن من يدرس فلسفة الأخلاق ، ومناهج الملائمة ومقاييسهم
لصبط سلوك البشر ، ليأخذ العجب بما فيها من فكر عميق ، وتلمس
للحقيقة ، واستشراف للثل العليا . ولنا نغمط فصل أحد نشد الخير
للناس واجتهد في إنارة السبيل أمامهم .

بيد أننا نلفت أنظار المنصفين إلى أساليب التربية الناجحة والأخلاق
الرائعة التي جاء بها صاحب الرسالة الخاتمة ، متمثلة في أخلاقه وسلوكه
الشيخى ، وفي توجيهاته وتربيته لأصحابه ، فنقل بها العالم من الغى
إلى الرشاد ..! . وسوف يرى من يدرسها كنوزاً حافلة بالنمائن ،
دونها ما ورث الناس من فلسفة اليونان والرومان ..!

(١) الفتح الربانى ج ٢٢ ص ٢٠ (٢) التاج ج ٥ ص ٣٧

(٣) الشفا للقاضى عياض : ج ١ ص ٢٠٨

ولقد قيل لعالم مسلم : هل قرأت أدب النفس « لأرسطو » ؟
فقال : بل قرأت أدب النفس لمحمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم .
وإننا نرجو الله تعالى أن يوفقنا لحلاء بعض معالم أخلاقه ،
كما نرجوه سبحانه وتعالى أن يجعل من هذه السطور واللمحات من
خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم وحياته خير مثل وقدوة ، وأن
يوفق المسلمين لتعديل سلوكهم على وفقها وطبع أخلاقهم بها . . فنسوق
إليك بعضاً مما ورد من أخلاقه صلى الله عليه وسلم .

* * *

* حِلْمُهُ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

الحلم قدرة نفسية يكتسبها ذوو الإرادة القوية ، يوفرون بها
لأنفسهم قدرًا من الوقار والثبات ، وعدم التسرع الذي قد يودي بهم
أو يحطّ من قدرهم أو يضيع عليهم هدفهم .
واكتساب صفة الحلم ليس بالأمر الهين ، ولكنه أمر شاق
عسير ، ففيه حبس لقوة الغضب والتحكم في استجابات غريزية ، وحسن
التصرف والروية في وسط هياج العاصفة وتوتر النفس ولا يستطيع
ذلك إلا من أوتوا همة عالية وتمسكوا بالمثل السامية . فإن الإنسان
بطبيعته وبما ركب فيه من غرائز أو دوافع إذا ما ارتكب ضده عمل
ضارّ به ، أو سمع قولاً يبعث على الغضب ، ثارت عواطفه ، وتوترت
نفسه ، فاندفع إلى تعجيل الانتقام .

ولعل ترويض النفس وحبسها عن ذلك ، والتحكم فيها هو بعض
ما أرادَه الرسول صلى الله عليه وسلم ، من قوله لصحابته بعد عودتهم
من غزوة « تبوك » ، وما لاقوه فيها من مشقة وإجهاد :

« رَجَعْنَا مِنَ الْجِهَادِ الْأَصْغَرِ ،
إِلَى الْجِهَادِ الْأَكْبَرِ ، وَهُوَ : جِهَادُ النَّفْسِ ^(١) » .
ولقد بلغ الرسول صلى الله عليه وسلم في هذه الصفة عاية الكمال :
وكيف لا ، وقد قال الله تعالى له :

﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ ^(٢) ﴾ .
فلما نزلت الآية الكريمة ، سأل الرسول عليه الصلاة والسلام
جبريل عن تأويلها . فقال جبريل عليه السلام له : حتى أسأل العليم
— أى الله جل وعلا — ثم ذهب وأتاه ، فقال له :

يَا مُحَمَّدُ . إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكَ أَنْ تَصِلَ مَنْ قَطَعَكَ ،
وَتُعْطِيَ مَنْ حَرَمَكَ ، وَتَعْفُوَ عَمَّنْ ظَلَمَكَ ^(٣) .

ولقد أوردت لنا الآثار الصحيحة طرقاً من حله صلى الله عليه وسلم :
١ — فعن عائشة رضى الله عنها قالت : لم يكن رسول الله
صلى الله عليه وسلم فاحشاً ^(٤) ولا متفحشاً ولا صخاباً ^(٥) في الأسواق ،
ولا يجزى بالسيدة مثلاً .. ولكن يعفو ويصفح ..

-
- (١) رواه البيهقي في الزهد ص ٦٤ ج ٣ الإحياء .
(٢) الأعراف : ١٩٩ (٣) ص ٣٤٥ ج ٧ تفسير القرطبي .
(٤) الفاحش : هو الناطق بالفحش ، وهو المتجاوز للحد في الكلام
السيئ . والمتفحش : هو المتكلف ، أى لم يكن الفحش له خلقاً
ولا مكتسباً — قاله الحافظ — الفتوح الرباني : ج ٢٢ ص ٢٠
(٥) الصخب والسخب : الضجة واضطراب الأصوات للخصام —
الفتح الرباني : ج ٢٢ ص ٢٦

وإذا كان هذا قول عائشة وإخبارها عن حلم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإننا لنجد كلامها هذا واقعاً فعلياً في سلوك رسول الله صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ، بل ومع أعدائه أيضاً . . .

٢ — فمن أنس رضى الله عنه قال : كنتُ أمشي مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعليه بُردٌ حُرانيٌّ عَليطُ الحاشية . فأدركه أعرابي ، فجذبه جبذة حتى رأيتُ صفحاً - أو صفحة - عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت بها حاشية البرد من شدة جبذته . . . فقال : يا محمد . أعطني من مال الله الذي عندك . .

فالتفت إليه رسول الله ﷺ فضحك ، ثم أمر له بعمطاء (١) . . وهذه صورة أخرى ربما كانت أقسى من الأولى ، ومع ذلك فقد كان حلم الرسول صلى الله عليه وسلم فيها أوسع ، وصفحه وإحسانه أكبر

٣ — فهذا أبو هريرة رضى الله عنه يقول : حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً ثم قام ، فقمنا . فنظرت إلى أعرابي قد أدركه فجذبه بردائه ، فحمر رقبته . وكان رداؤه - صلى الله عليه وسلم - خشناً . فالتفت النبي صلى الله عليه وسلم . . فقال له الأعرابي . أحمل لي على بعيرى هذين ، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك . فقال النبي ﷺ : « لا ، وأستغفر الله ، لا ، وأستغفر الله ، لا ، وأستغفر الله . لا أحمل لك حتى تقيدني (٢) من جبذتك التي جبذتني » . فكل ذلك يقول له الأعرابي : والله لا أقيدكما .

فلما سمعنا قول الأعرابي ، أقبلنا إليه سراعاً . .

(١) رواه أحمد - الفتح الرباني : ج ٢٢ ص ١٩

(٢) تقيدني : أي تمكيني من أن أقص منك بمثلها .

فالتفت إلينا النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال :
 « عزمْتُ على من سمع كلامي ألا يرح مكانه حتى آذن له » .
 ثم دعا رجلاً فقال له : « احمل له على بعيره هذين ، على بعير
 شعيرًا ، وعلى الآخر تمرًا » .

ثم التفت إلينا ، ثم قال : « انصرفوا على بركة الله (١) » .

٤ — وروى عن عبد الله رضى الله عنه ، قال :

قسم رسول الله صلى الله عليه وسلم قسمة كبعض ما كان يقسم .
 فقال رجل من الأنصار : والله إنها لقسمة ما أريد بها وجه الله !
 قلت : أما لأقوان للنبي صلى الله عليه وسلم .. فأثبته وهو في أصحابه
 فساررت ، فشق عليه .. وتغير وجهه وغضب ، حتى إنى وددت أنى
 لم أكن أخبرته ، ثم قال - صلى الله عليه وسلم :

« أُوذِيَ مُوسَى بِأَكْثَرِ مِنْ ذَلِكَ .. فَصَبَرَ (٢) ! »

٥ — وهذا بهز بن حكيم رضى الله عنه يخبرنا أن النبي صلى الله
 عليه وسلم كان يخطب وبين الناس « حَيْدَةً » جد « بهز » ..
 فجاء رجل من قومه فقال : يا محمد ، علام تحبس جبرتي ؟
 وكان النبي صلى الله عليه وسلم يحبسهم في تهمة ..
 فصمت النبي صلى الله عليه وسلم عنه .

فقال : إن ناساً ليقولون : إنك تنهى عن الشر وتستخلى به (٣) .
 فقال النبي صلى الله عليه وسلم : « ما يَقُول ؟ ! »

(١) رواه الشيخان وأبو داود - التاج : ج ٥ ص ٦٩

(٢) متفق عليه - رياض الصالحين : ص ٣٨ ، ٣٩

(٣) تستخلى به : تنهى عن الشر وتفعله خفية .

قال : - جد بهر - فجعلت أعرص بينهما بالكلام ، مخافة أن يسمعها ، فيدعو على قومي دعوة لا يلاحون بعدها أبدا ..

فلم يزل النبي صلى الله عليه وسلم حتى فهمها ، فقال . « قد قالوها ؟ »
أو : قائلها منهم ؟ . والله لو فعلت لكان عليّ وما كان عليهم ،
خلوا له عن أصحابه .

فهذا الرجل من قوم حيدة جد بهز بن حكيم يسمع رجلا من قومه
يتناول على مقام الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيخشى أن يسمع الرسول
صلى الله عليه وسلم ما قاله الرجل ، فيغضب ويدعو على قومه .

فوقف حيدة يحاول أن يصرف الرسول ﷺ عن التحقق مما
نسب هذا السفيه إلى رسول الله ﷺ . ولكن الرسول صلى الله
عليه وسلم لم يلبث أن عرف حقيقة ما قال الرجل ، وتألم لذلك ألما
شديداً . . . وكان يمكنه أن يأمر أحد أصحابه بمعاينة هذا المتجنى
ويحاسبه على تطاوله على الرسول صلى الله عليه وسلم بالباطل ؛ ولكن
الرسول ﷺ صبر على هذا الأذى ، وصفح عن مرتكبه ؛ بل وأحسن
إليه ، فأمر بأن يخلّى سبيل أصحابه المحبوسين بتهمة اتهموا بها^(١)

ولا أدل على تمكن هذه الصفة من نفس رسول الله صلى الله
عليه وسلم وأصالتها في حلقه من أنها عمت الجميع حتى شملت أعداءه ،
فكانت سبب إسلام الكثيرين منهم !

عن عبد الله بن سلام قال : إن الله عز وجل لما أراد هدى
زيد بن سَعْنَةَ ، قال زيد : ما من علامات النبوة شيء إلا وقد عرفته
في وجهه ، سوى اثنتين لمّا أخبرهما^(٢) منه :

(١) الفتح الرباني : ج ١٦ ص ١٢٤ (٢) أعرفهما فيه .

يسبق حلمه جهل الجاهل .1

ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلمًا ..1

فكنت أنطلق إليه لأخالطه وأعرف حلمه .. فخرج يوماً ومعه
عليّ بن أبي طالب ، فجاءه رجل كالبدوي فقال : يا رسول الله ،
إن قرية بني فلان أسلموا ، وحدثتهم أنهم إن أسلموا أقتلهم ، أرزاقهم
رغداً .. وقد أصابتهم سنة^(١) وشدة ، وإني مشفق عليهم أن يخرجوا
من الإسلام . فإن رأيت أن ترسل لهم بشي^{*} يعينهم .

قال زيد : فقلت أنا أبتاع منكم بكذا وكذا وسقاً .

فأعطيته ثمانين ديناراً ..

فدفعها إلى الرجل وقال : « اعجل عليهم بها ، فأعنيهم . »

فلما كان قبل المحل^(٢) يوم أو يومين أو ثلاثة ، خرج رسول الله
صلى الله عليه وسلم إلى جنازة في نفر من أصحابه .. فجبذت^(٣) رداه
حبذة شديدة حتى سقط عن عاتقه ، ثم أقبلت وجهه جهنم غليظ ،
وقلت : ألا تقضيني يا محمد ؟ فوالله ما علمتكم بني عبد المطلب أمطل !

فارتعدت فرائص عمر بن الخطاب كالفلك المستدير ، ثم رمى بهصره
فقال : أي عدو الله ! أتقول هذا لرسول الله صلى الله عليه وسلم ،
ونصنع به ما أرى ، وتقول ما أسمع ؟ فوالذي بعثه بالحق ،
لولا ما أخاف موته لسبقني رأسك^(٤) .

(١) بفتح السين : الشدة . (٢) أي حلول أجل الدين .

(٣) جبذ رداه : شده بقوة ، يقال جبذه وجذبته بمعنى واحد .

(٤) يقصد : لولا ما أخافه من غضب الرسول لقتلتك .

ورسول الله صلى الله عليه وسلم ينظر إلى عمر في تؤدة وسكون ،
ثم تبسم وقال : « أنا وهو أحوج إلى غير هذا :
أن تأمرني بحسن الأداء ، وتأمره بحسن التَّبَاعَة (١) .

اذهب يا عمر فاقضه حقه ، وزده عشرين صاعاً من تمر . »
فقلت : ما هذا ؟ قال : أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم
أن أزيدك مكان منارعتك . فقلت : أتعرفني يا عمر ؟ قال : لا ،
فمن أنت ؟ قلت : أنا زيد بن سَعْنَة . قال : العجبر ؟ قلت : العجبر .
قال : فما دعائك أن تفعل برسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعلت ،
وتقول له ما قلت ؟ !

قلت : يا عمر ، إنه لم يبق من علامات النبوة شيء إلا وقد
عرفته في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه إلا اثنتين
لم أخبرهما منه : يسبق حلمه جهله ، ولا يزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً ..
فقد اختبرته منه . . فأشهدك - يا عمر - أني رضيت بالله : رباً ،
وبالإسلام : ديناً ، وبمحمد : نبياً .. وأشهدك أن شطر مالى لله
- فأني أكرها مالا - صدقة على أمة محمد صلى الله عليه وسلم .

فقال عمر : أو على بعضهم ، فإنك لا تسعهم كلهم .
قلت : أو على بعضهم . قال : فرجع عمر وزيد بن سَعْنَة إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقال زيد : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله .
فآمن به ، وصدقته ، وبأبعه ، وشهد معه مشاهد كثيرة (٢) .

(١) بقاء مشددة مفتوحة : الطالب .

(٢) الوفا بأحوال المصطفى : ج ٢ ص ٤٢٥

ولقد كان هذا حال رسول الله صلى الله عليه وسلم دائماً ، حتى
ليعبر عن ذلك عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى بعض كلامه عن
رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أبى أنت وأمى يا رسول الله .
لقد دعا نوح على قومه فقال : رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ
الْكَافِرِينَ دَيَّارًا » . ولو دعوت علينا مثلها لملكنا من عند
آخرنا .. فقد وطئ ظهرك ، وأدى وجهك ، وكسرت رباعيتك ..
فأبيت أن تقول إلا خيراً ، فقلت :

« اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِقَوْمِي ، فَإِنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ! .. »

يقول القاضى عياض ، تعقيباً على حديث عمر ، رضى الله عنه :
انظر هذا القول من جماع الفضل ، ودرجات الإحسان ، وحسن
الخلق ، وكرم النفس وعاية الصبر والحلم ، إذ لم يقتصر صلى الله عليه
وسلم على السكوت عنهم ، حتى عفا عنهم .. ثم أشق عليهم ورحمهم ،
ودعا وشفع لهم فقال : « اغفر أو اهدأ » ثم أظهر سبب الشفقة والرحمة
بقوله : « لقومى » ، ثم اعتذر بجهلهم فقال : « فإنهم لا يعلمون (١) » .

* صِدْقُهُ وَأَمَانَتُهُ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الصدق هو مطابقة الكلمة للواقع . . وقد كان حال رسول الله
صلى الله عليه وسلم : الصدق دائماً ، مع أصدقائه وأعدائه ، وسواء
أكان جاداً أو مازحاً ، راضياً أو غاضباً ، فى حالة سلام أو حرب ..
وهو فى كل ذلك يقول الحق ، وينطق بالصدق ، ويدعو إليه ويحبب
الناس فيه ، ويبين لهم أثره .. فعن ابن مسعود رضى الله عنه ، قال :

(١) شرح الشفا : ج ١ ص ٢٣٨ ، ٢٣٩

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ ! وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا ... وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ ! وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا ! »^(١).

وتقول عائشة أم المؤمنين ، رضي الله عنها :

ما كان من خُلُقِي أبغضَ إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكذب ، ولقد كان الرجلُ يكذبُ عنده الكذبُ ، فما يزال في نفسه ، حتى يعلم أنه قد أحدث فيها توبة^(٢) .

ومن خِيارِ الرسول صلى الله عليه وسلم ، ومن آراء الناس فيه : أصدقاؤه وأعداؤه على السواء ، نفتبس أمثلة تمين ثقتهم في جانب الصدق والأمانة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم : فمن حديث لابن إسحاق عن الرسول عليه الصلاة والسلام - قبل بعثته - يقول : كانت حديجة بنت خويلد ، امرأة تاجرة ، ذات شرف ومال ، تستأجر الرجال في مالها ، وتضاربهم إياه بشيء تجعله لهم . . . وكانت قريش قوماً تجاراً . . . فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه وعظم أمانته وكرم أخلاقه ، بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج في مال لها إلى الشام تاجراً ، وتُعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يُقال له : ميسرة ..

(١) متفق عليه - رياض الصالحين : ص ٥٦٠

(٢) رواه أحمد والبخاري - الترغيب والترهيب : ج ٣ ص ٢٣٤

فقبله رسول الله ﷺ وخرج في مالها ، وخرج معه غلامها
ميسرة ، حتى قدم الشام .. ثم باع رسول الله سلعته التي خرج بها ،
واشترى ما أراد أن يشتري ، ثم أقبل قافلا إلى مكة ومعه ميسرة ..
فلما قدم مكة باعت خديجة ما جاء به ، فأضعفت (١) أو قريبا (٢) ..

ويقول الدكتور محمد حسين هيكل :

واستطاع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأمانته ومقدرته أن يتجر
بأموال السيدة خديجة تجارة أوفر ربحا مما فعل غيره من قبل ،
واستطاع بحلو شوائله وجمال عواطفه ، أن يكسب محبة « ميسرة »
وإجلاله .. فلما آن لهم أن يرجعوا إلى مكة ، ابتاع الخديجة من
تجارة الشام كل ما رغبت إليه أن يأتيها به (٣) .

وهكذا كان صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمانته من أهم
العوامل التي حببت السيدة خديجة رضي الله عنها فيه ، ورعبتها في الزواج منه .
وعندما أمره الله سبحانه وتعالى بالجهر بالدعوة ، ونزل عليه
قوله تعالى : ﴿ وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ صعد على الصفا ،
فقال : « يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ .. »

فقلت قريش : عجد على الصفا يهتف : فأقبلوا واجتمعوا فقالوا :
مالك يا محمد ؟ قال : « أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا (٤)
بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ ، أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونَنِي ؟ »

(١) أضعفت : ربح مالها ضعف ما كان يربح .

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٢١

(٣) حياة محمد : ص ٨٣ (٤) جيشا لأعداء يغيرون عليكم .

قالوا : نعم . أنت فينا غير متهم ، وما جرنا عليك كذبا
قط (١) .. الحديث .

وحينا اشتدت المخاصمة بين رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين
قريش ، حتى أصبح كل قريش تقريبا حريصا على صد الناس عنه ،
بل وعلى قتله .. اجتماعوا في مجلس من مجالسهم ، محاولين صرفه عن
دعوته .. فأبى .. فاشتد بهم الحنق والرعدة في السكيد له ، حتى لقد
تآمر أبو جهل وجماعة على قتله .. وتحدث المجتتمعون بذلك بعد قيام
رسول الله صلى الله عليه وسلم عنهم ، فوقف النضر بن الحارث بن علقمة
ابن كلفة - وهو من زعمائهم - فكان مما قاله :

يا معشر قريش : إنه والله قد نزل بكم أمر ، ما أتيتم له بحيلة
بعد ! قد كان عهد فيكم غلاما حدثا ، أرضاكم فيكم ، وأصدقكم
حديثا ، وأعظمكم أمانة . حتى إذا رأيتم في صدغيه الشيب ، وجاءكم
بما جاءكم به ، قلتم ساحر ؟ لا ، والله ما هو بساحر (٢) .. الحديث .
ولا أدل على تأصل الأمانة في خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم
من حرصه على أدائها ، حتى مع أعدائه ومدبري قتله ..
وليلة هجرته ، يقول ابن إسحاق :

ولم يعلم أحد - فيما بلغني - بخروج رسول الله صلى الله عليه
وسلم مهاجرا حين خرج ، إلا عليّ ابن أبي طالب ، وأبو بكر وآل
أبي بكر . أما عليّ ، فإن الرسول عليه الصلاة والسلام أحبره
بمخروجه ، وأمره أن يتخلف بعده بمكة حتى يؤدي عن رسول الله

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد : ج ١ ص ٢٠٠

(٢) سيرة ابن هشام : ج ١ ص ١٩٤ ، ١٩٥

صلى الله عليه وسلم الودائع التي كانت عنده للناس . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ليس بمكة أحد عنده شيء ، يخشى عليه إلا وضعه عنده ، لما يعلم من صدقه وأمانته (١) ..!

فمع ما كان منهم من عداوة وبغضاء ، وإيذاء وتأمر على قتله وإخراج له من بلده ، لم يخُنْ أماناتهم عنده !. فهل هناك درجة أعلى في الأمانة وتأصلها من تلك الدرجة ؟!

* * *

* زُهْدُهُ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لقد كان زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، في الدنيا وعدم ميله إلى أحوالها وزينتها ومتعها في مستوى لم يصل إليه إلا أولو العزم من الرسل . فلقد كانت قوة إرادة الرسول صلى الله عليه وسلم أقوى من شهوات النفس ولذائذها ، وتعلقاته الروحية أكبر من حاجاته الجسدية ، بما طمع عليه من سمو الغاية ونيل المقصد وكمال الخلق ..! حتى لقد كان يدمو ربه أن لا يجعل همه في الدنيا .

فَمِنْ قَوْلِهِ :

« اللَّهُمَّ اجْعَلْ رِزْقَ آلِ مُحَمَّدٍ قُوَّتًا (٢) » .

ولقد كان زهد رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً يُحتذى :

١ — فما كان يوماً حريضاً على المال ..! وقد كان في إمكانه أن يصبح عنده منه ما لا يمكن حصره ..!

(١) سيرة ابن هشام : ج ٢ ص ١٢٥

(٢) رواء الشيخان - شرح الشفا : ج ١ ص ٣٠٦

فمن أبي أمامة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، قال :
 « عَرَضَ عَلَيَّ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ أَنْ يَجْعَلَ لِي بَطْحَاءً مَكَّةَ ذَهَبًا .
 فَقُلْتُ : لَا يَا رَبِّ ، وَلَكِنْ أَصْبَعُ يَوْمًا وَأَجُوعُ يَوْمًا ^(١) ! ..
 فَإِذَا جَعْتُ تَضَرَّعْتُ إِلَيْكَ وَذَكَرْتُكَ ،
 وَإِذَا شَبِعْتُ حَمَدْتُكَ وَشَكَرْتُكَ ^(٢) ! .. »

ولهذا كانت حياته صلى الله عليه وسلم دائماً على الكفاف .
 ٢ — فمن علي بن رباح رضي الله عنه قال : سمعت عمرو
 ابن العاص رضي الله عنه يقول : أصبحت أترغون في الدنيا ..! وكان
 رسول الله صلى الله عليه وسلم يزهد فيها ..! والله ما أتت على رسول الله
 صلى الله عليه وسلم ليلة في دهره إلا كان الذي عليه أكثر مما له .
 فقال له بعضهم : قد رأينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يستسلف ^(٣) !
 ٣ — بل إنه صلى الله عليه وسلم ما كانت نفسه تميل إلى المال ،
 إلا أن يكون لينفقه في سبيل الله .

فمن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي صلى الله عليه وسلم
 التفت إلى جبل أحد ، فقال :
 « وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ ، مَا يَسُرُّنِي أَنْ أُحْدَا يُحَوَّلَ
 لِي لَيْلٍ مُحَمَّدٍ ذَهَبًا أَنْفَقُهُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أَمُوتَ يَوْمَ أَمُوتَ
 أَدَّعُ مِنْهُ دِينَارَيْنِ ، إِلَّا دِينَارَيْنِ أُعِدَّهُمَا لِذَيْنِ إِنْ كَانَ » .

(١) أو نحو ذلك . (٢) رواه أحمد - الفتح الرباني : ج ٢٢ ص ٢٨

(٣) المصدر السابق : ص ٢٩

فمات - صلى الله عليه وسلم - ولم يترك ديناراً ، ولا درهما ، ولا عدداً ولا وليدة ١ .

٤ - ومن كراهيته صلى الله عليه وسلم أن يبنى عنده شيء من مال بعد وفاته ، ما روته السيدة عائشة رضى الله عنها من أنه كان عندها ستة دنائير ، ومرض رسول الله صلى الله عليه وسلم مرضاً ، فأمرها أن تفرقها .. فلما اشتد وجعه انشعلت به ..

فلما أفاق سألمها عنها ، فأخبرته بأنها شغلت به عن تفريقها . فدعا بها ، فصفاها في كفه ، فقال :

« مَا ظَنُّكَ نَبِيَّ اللَّهِ يَلْقَى اللَّهَ »

- عَزَّ وَجَلَّ - وَهَذِهِ عِنْدَهُ (١) ؟ ! »

فإذا كان هذا حاله في المال ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان أزهد فيما سواه . ففي الطعام :

١ - قالت عائشة رضى الله عنها : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام تباعاً من حبز الشعير حتى مضى إلى سبيله .. وفي رواية عنها : ولو شاء لأعطاه الله ما لا يخطر ببال ..

وفي رواية عنها أيضاً ، رضى الله عنها : ولقد مات وما في يتي شيء يأكله ذو كبد إلا شطر (نصف صاع) شعير في ردف (أى رف) لى (٢) . وعنهما رضى الله عنها ، قالت : كنا - آل محمد - لنمكث شهراً ما نستوقد ناراً .. إن هو إلا التمر والماء (٣) ..

(١) المصدر السابق (بالمعنى) .

(٢) رواه الشيخان - شرح الشفا : ج ١ ص ٣٠٨

(٣) أى لا يكون طعامهم إلا التمر والماء .

بل كان أكثر أيامه صلى الله عليه وسلم بيت هو وأهله
طاووين جائعين ١ . فعن ابن عباس رضى الله عنهما قال :
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت هو وأهله ، الليالى
المتتابعة ، طاووين لا يجدون عشاء (١) .

وفى الفراش :

١ — وكذلك كان زهد الرسول صلى الله عليه وسلم عن الفراش
الناعم المريح : فعن عائشة رضى الله عنها ، قالت . إنما كان فراشه
صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه أدما (٢) حشوه ليف (٣) .
وكان ينام أحيانا على سرير مرجول بشریط (٤) حتى يؤثر فى جنبه (٥) .
وما ذكرناه إشارة فقط إلى بعض ما كان عليه صلى الله عليه
وسلم من الزهد .

* جُودُهُ وَسَخَاوُهُ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ *

من الناس من تأصلت فى نفوسهم دوافع الخير ، فأصبح حودهم
سمة بارزة لا تتوقف على دفع مصيبة ، أو قضاء حاجة ، وإنما هو
برٌّ وتسكريم للجميع ، للقريب ذى الرحم ، والغريب ، والجار البعيد ،
والغنى والفقير ولان السبيل أو المقيم .

(١) رواه ابن ماجه ، والترمذى وصححه ١ : ج ١ ص ٣١٠

(٢) جلدا مذبوغا ، وقيل الأحمر ، وقيل الأسود .

(٣) روى فى الصحيحين .

(٤) منسوج بجمل مفتول من سعف النخيل .

(٥) رواه الشيخان والترمذى وابن ماجه .

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى لهؤلاء ،
لا يُسارى في كرمه ، ولا يُتطاول إليه في حوده وسخائه ...
وصفه بذلك كل من عرفه

عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله عنه ، قال :
ما سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئا ، فقال : « لا » (١) .
وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كان النبی صلى الله عليه وسلم
أجود الناس بالخير (٢) ، وأجود ما كان في شهر رمضان ! وكان إذا
لقيه جبريل عليه السلام أحود بالحبر من الريح المرسلة (٣) ... ولقد
كانت هذه حاله صلى الله عليه وسلم قبل البعثة : فهذه السيدة خديجة
رضى الله عنها تقول له عند البعثة . (... والله لا يُخزيك الله أبدا .
إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتحمل الكل (٤) ، وتكسب
المعذوم (٥) ، وتقري الضيف (٦) وتعين على نوائب الحق (٧)) .

٤ — ولقد بلغ من جود رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا يرد
سائلا بدون عطاء ، حتى ولو لم يكن عنده شيء ، فإنه يقترض له
ويعطيه ، أو يطلب من السائل أن يبتاع ما يريد من تجار المدينة على
أن يدفع الرسول صلى الله عليه وسلم ثمن ما يشتري .
فلقد جاء رجل إليه صلى الله عليه وسلم ، فسأله . .

-
- (١) رواه البخارى في الأدب ، ومسلم في فضائله صلى الله عليه وسلم ، والترمذى في الشمائل ج ١ ص ٢٤٦ شرح الشفا .
(٢) أى بكل ما ينفعهم في دينهم . (٣) رواه الشيخان .
(٤) الكل ، بفتح الكاف وتشديد اللام : الضعيف .
(٥) أى تعطى الفقير . (٦) تكرم الضيف . (٧) حياة عهد ص ١٣٤

فقال : « ما عِنْدِي شَيْءٌ ! .. وَلَكِنْ أَبْتَغِ عَلَيَّ ،
فَإِذَا جَاءَنَا شَيْءٌ قَضَيْنَاهُ .. »

وقال له عمر ، رضى الله عنه : ما كلمك الله ما لا تقدر عليه !
فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك . فقال له رجل من الأصار :
يا رسول الله ، أنفق ولا نخش من ذى العرش إقلالا .
فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وعرف البشر في وجهه ،
وقال : « بِهَذَا أُمِرْتُ ^(١) . »

٥ — و « جود » الرسول صلى الله عليه وسلم لا تحدّه حدود .
فعن أنس رضى الله عنه أن رجلا سأله صلى الله عليه وسلم ، فأعطاه
غنما بين جبليين ! فرجع إلى بلده - وروى لقومه ما رآه من
رسول الله صلى الله عليه وسلم وسخائه ، وقال لهم : أسلموا ، فإن هذا
يُعْطِي عَطَاءً مَنْ لَا يَخْشَى الْفَقْرَ (أو يعطي عطاء من لا يخشى فاقة ^(٢)) !
وأعطى صفوان بن أمية مائة من الإبل ، ثم مائة ، ثم مائة ^(٣) ..
٦ — وعن صفوان بن أمية رضى الله عنه ، قال : أعطاني
رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ، وإني لأبغض الناس إليّ ..
فما زال يعطيني حتى صار وإني لأحبّ الناس إليّ ^(٤) ..

ولقد كان هذا السكرم سببا في إسلام كثير من الأعراب ، إذ أنهم
رأوه صورة غير عادية لا يقدر عليها بشر عادي ، مهما بلغ ثراؤه وجوده ،
وكان سخاء الرسول ﷺ وكرمه يأخذ بمجامع القلوب والألباب .

(١) ذكره الترمذى في الشمايل : ص ٢٥٢ ، ٢٥٣ ج ١ شرح الشفا .

(٢) رواه مسلم : ص ٢٥٠ ج ١ شرح الشفا .

(٣) ص ٢٤ ج ٢٢ الفتح الربانى . (٤) ص ٣٦ المصدر السابق .

فمن أس رضي الله عنه قال : إن كان الرجل ليأتي النبي صلى الله عليه وسلم ، ما يريد إلا أن يُصيب عرضا من الدنيا . أو قال : دينا يصيبها ، فما يُمسي من يومه ذلك حتى يكون دينه أحب إليه ، أو قال : أكبر عليه من الدنيا وما فيها ..

وكان من عاداته صلى الله عليه وسلم أن يقبل الهدية ، ولكن كرمه كان يأبى عليه إلا أن يكافئ عليها ، فما أهدى إليه أحد شيئا إلا أعطاه أضعاف هديته ..

٨ - فقد ذكر عن معوذ بن عراء رضي الله عنه ، قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقناع^(١) من رطب وأجر زغب^(٢) ، فأعطاني ملء كفه حلينا وذهب^(٣) ..

٩ - وما كان يمنع شيئا ، ولو كان في أشد الحاجة إليه .. فمن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه : أن امرأة أتت النبي صلى الله عليه وسلم ببرد منسوجة فيها حاشيتها^(٤) ، قال سهل : وهل تدرون ما البرد ؟ قالوا : نعم . هي الشملة ، قال : نعم . فقالت : يا رسول الله ، نسجت هذه بيدي فجئت بها لأكسوكها . فأخذها النبي صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها . فخرج علينا وإنها لإزاره . . فجلسها فلان - رجل بماء^(٥) - فقال : ما أحسن هذه البردة ! أكسنيها يا رسول الله . قال : « نعم . »

(١) وعاء مما يؤكل عليه .

(٢) وأجر زغب : أي قشاة صغيرة عليها زغب .

(٣) رواه الترمذي في الشمائل : ص ٢٥٢ ج ١ شرح الشفا .

(٤) حاشية الثوب : هديه . (٥) قيل : إنه سعد بن أبي وقاص .

فلما دخل الرسول صلى الله عليه وسلم ، طواها وأرسل بها إليه ١
فقال له القوم : والله ما أحسنت ١..
كُسيها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، محتاجا إليها .
ثم سأله إياها ، وقد علمت أنه لا يرد سائلا ١
فقال : والله إني ما سأله لألسها ١. ولكن سأله إياها ،
لتكون كفى يوم أموت ١..
قال سهل : فكانت كفته يوم مات (١) ١..
١٠ — وكان صلى الله عليه وسلم إذا أدى إليه أحد معروفا ،
كافأه وحازاه فمن أبي هريرة رضى الله عنه قال :
أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم يسأله - ولم يكن عند رسول
الله صلى الله عليه وسلم شيء يعطيه - فاستسلف نصف وسق (٢) ..
فجاء الرجل يتقاضاه (٣) . . فأعطاه الرسول صلى الله عليه وسلم
وسقا ، وقال : « نصفه قضاء ، ونصفه نائل (٤) . »

١١ — وكان صلى الله عليه وسلم إذا جاء مال من فء
أو غنيمة ، فإنه لا يستريح ولا يقر له قرار حتى يوزعه على
السائلين والمحتاجين ، ولا يدخر لنفسه إلا قوت عامه ١..
ومن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : كان رسول الله صلى
الله عليه وسلم لا يأخذ مما آتاه الله إلا قوت عامه فقط ، من أيسر
ما يجد من التمر والشعير ، يضع سائر ذلك في سبيل الله (٥) ١..

(١) ص ٣١ ج ٢٢ الفتح الرباني . (٢) الوسق : إناء يكال به .

(٣) يطلب من رسول الله ما استسلمه منه .

(٤) منحة : هدية ، رواه الترمذي في الشمائل : ص ٢٥٣ ج ١

شرح الشفا . (٥) متفق عليه - ص ٣٦٠ ج ٢ : الإحياء .

وَحَمَلَتْ إِلَيْهِ تِسْعُونَ أَلْفَ دِرْهَمٍ . فَوَضَعَتْ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَى حَصِيرٍ ..
 ثُمَّ قَامَ إِلَيْهَا يَقْسِمُهَا ثَمَا رَدًّا سَائِلًا حَتَّى فَرَعَ مِنْهَا (١) .
 ١٢ — وَإِذَا كَانَتْ أَعْلَى مَرَاتِبِ الْجُودِ هِيَ أَنْ يُوَثِّرَ الْإِنْسَانُ
 عَلَى نَفْسِهِ وَأَوْلَادِهِ وَأَهْلِهِ ، فَقَدْ بَلَغَ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ
 الْمَنْزِلَةَ السَّامِيَةَ الَّتِي لَمْ يَبْلُغَهَا بَشَرٌ كَاثِنًا مِنْ كَانَ .
 رَوَى ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ
 يُوَثِّرُ مِمَّا ادَّخَرَ لِعِيَالِهِ ، حَتَّى رُبَّمَا احتَاجَ قَبْلَ الْعَامِ ..

* * *

* تَوَاضَعُهُ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لَقَدْ أُعْطِيَ اللَّهُ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلَّ أَسْبَابِ الشَّرَفِ
 وَالرَّفْعَةِ .. ١. فَمَا مِنْ شَرٍّ وَلَا نَبِيٍّ وَلَا مَلِكٍ نَالَ مَا نَالَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ
 عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْفَضْلِ وَالْكَرَامَةِ وَالْمَنْزِلَةِ عِنْدَ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ .. ١.
 وَمَعَ مَا تيسَّرَ لَهُ مِنْ أَسْبَابِ الْعِظَمَةِ الْحَقِيقِيَّةِ وَالْمُهَابَةِ الرَّبَّانِيَّةِ
 وَالْكَمَالِ الْإِنْسَانِيِّ ؛ فَقَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ متَوَاضِعًا
 غَايَةَ التَّوَاضُعِ .. ١.

١ — فَلَقَدْ رَوَى أَحْمَدُ وَابْنُ أَبِي حَتْمٍ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خُيِّرَ بَيْنَ
 أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا مُلْكًا ، أَوْ نَبِيًّا عِدًّا .. فَاخْتَارَ أَنْ يَكُونَ نَبِيًّا عِدًّا .. ١.
 فَقَالَ لَهُ إِسْرَافِيلُ عِنْدَ ذَلِكَ :

فَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَعْطَاكَ بِمَا تَوَاضَعْتَ لَهُ : أَنْتَ سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ
 الْقِيَامَةِ ، وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ - لِلْعَثِّ - وَأَوَّلُ شَافِعٍ (٢) .. ١.

(١) رَوَاهُ السُّنَنُ : ص ٢٥١ ج ١ مَرْحُومُ الشَّافِعِ .

(٢) ص ٢٨٨ ج ١ شَرْحُ الشَّافِعِ .

٢ — ومع ما آتاه من التقدم والإمامة والفضل على الأنبياء ، فقد كان يكره أن يفضل أحد على بي من أنبياء الله ، أو أن يناديه أحد بلفظ التفضيل عليهم .

فهذا رجل من المسلمين يناديه فيقول : يا خير البرية .
فرد عليه الرسول ﷺ متواضعا بقوله : « ذاك إبراهيم (١) » .
وورد أنه استب مسلم ويهودي ، فقال اليهودي : والذي اصطفى موسى على العالمين . . . فلطمه المسلم . .

فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم . . فقال :
« لَا تُفَضِّلُوا بَيْنَ الْأَنْبِيَاءِ ، وَلَا تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى (٢) . »

٣ — وإذا كان هذا حاله صلى الله عليه وسلم في تواضعه لربه ، وتواضعه مع إخوانه الأنبياء ، فلقد كان كذلك عليه الصلاة والسلام مع أصحابه . فمن عمر رضى الله عنه :

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« لَا تُطَرُونِي كَمَا أَطَرَتِ النَّصَارَى عِيسَى بْنَ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ (٣) . »

٤ — وعن أنس رضى الله عنه أن رجلا قال للنبي ، صلى الله عليه وسلم : يا سيِّدنا ، وباحيرنا ، وابن خيرنا .
فقال النبي صلى الله عليه وسلم :

(١) رواه مسلم وأبو داود والترمذي والنسائي ص ٢٩٢ شرح الشفا .

(٢) رواه الشيخان وأبو داود والنسائي ص ٢٩١ ، ٢٩٢ شرح الشفا .

(٣) الفتح الرباني : ج ٢٢ ص ٢١

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ : قُولُوا بِقَوْلِكُمْ ^(١) ، وَلَا يَسْتَهْوِيَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ . أَنَا مُحَمَّدٌ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَرَسُولُهُ ، وَاللَّهُ مَا أَحَبُّ أَنْ تَرْفَعُونِي فَوْقَ مَا رَفَعَنِي اللَّهُ عَزَّ وَحَلَّ ^(٢) » .

هـ — ومن تواضعه صلى الله عليه وسلم مع أصحابه ، أنه كان يكره أن يتميز عليهم في المجلس أو في السير .

فمن أبي أمامة رضى الله عنه قال : مر النبي صلى الله عليه وسلم في يوم شديد الحر نحو بقيع الغرقد .. قال : فكان الناس يمشون خلفه .. فلما سمع صوت النعال ، وقر ذلك في نفسه ، فجلس حتى قدمهم أمامه ، لئلا يقع في نفسه من الكبر ^(٣) ..

وعن أبي أمامة الباهلي رضى الله عنه قال : خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم متوكئا ^(٤) على عصا .. فقمنا له تعظيما وتكريما فقال : « لَا تَقُومُوا كَمَا تَقُومُ الْأَعَاجِمُ : يَعْظُمُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ! » .

وفال : « إِنَّمَا أَنَا عَبْدٌ .. آكُلُ كَمَا يَأْكُلُ الْعَبْدُ ، وَأَجْلِسُ كَمَا يَجْلِسُ الْعَبْدُ ^(٥) .. »

ودخل عليه رجل ، فأصابته رعدة .. فقال له :

« هَوْنٌ عَلَيْكَ ؛ فَإِنِّي لَسْتُ بِمَلِكٍ .. إِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَأَنْتَ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ ^(٦) . »

(١) بقولكم : أى بما تعرفون فى ، كقولكم فى التشهد : « وأشهد أن محمدا عبده ورسوله » . (٢ ، ٣) رواه أحمد ص ٢١ ج ٢٢ الفتح الربانى .

(٤) متحملا ومعتمدا . (٥) رواه أبو داود فى السنن ص ٢٨٨ ، ٢٨٩ ج ١ شرح الشفا . (٦) اللحم المجفف .

٦ - ومن صُور تواضعه صلى الله عليه وسلم : تواضعه في بيته ومع أهله ، فقد سئلت السيدة عائشة رضى الله عنها : ما كان يصنع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيته ؟ فقالت : كما يصنع أحدكم : يخصف^(١) نعله^(٢) .. وفي حديث آخر قالت : ويحلب شاته ويخدم نفسه ، ويكون في حاجة أهله - أى يساعدهم .

٧ - وإذا كان هذا شأنه صلى الله عليه وسلم مع أهله ، فلقد كان كذلك متواضعا مع خدمه ومع الفقراء والمساكين وحتى الإماء . فلقد كان يزور أصحابه ويخالطهم أى يمازحهم ويلعب صغارهم ، فكان صلى الله عليه وسلم يقول لأخى أنس : « يا أبا عمير . . ما فعل النُّغَيْرُ^(٣) ؟ »

وعن أنس أيضا قال : إن كانت الأمة^(٤) لتأخذ بيد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتنتلق به في حاجتها^(٥) ..

٨ - وكان من كمال تواضعه صلى الله عليه وسلم : يركب الحمار مع قدرته على ركوب الفرس والبغل والناقة ، ويركب وحده ، كما كان لا يتكبر أن يُركب خلفه ، كما روى عن أبي هريرة رضى الله عنه من قوله : ويُردف خلفه ، أى يركب وراء ظهره على الناقة وغيرها ، ويعول المساكين - من المرضى ، ويجالس الفقراء - بل ويفضل مجالسهم

(١) يخصف نعله : أى يخرزه ويخيطه . (٢) ص ٢٢ ج ٢٢ الفتح الربانى .

(٣) ص ١٨ ج ٢٢ : الفتح الربانى . (٤) الأمة : الرقيقة .

(٥) أى كان صلى الله عليه وآله وسلم تأخذ بيده فتطلب منه أن يذهب معها

إلى السوق ، ليشتري لها ما تريد أو يقضى لها حاجتها ، فينتلق معها

- ص ٢٢ ج ٢٢ . الفتح الربانى .

على غيرهم ١ . ويحجب دعوة العبد استجابة لقوله تعالى :
﴿ وَانْخِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴾
ويجلس صلى الله عليه وسلم بين أصحابه محتلطا ، فلا يتحيز
مجلسا يترفع عليهم ، بل يجلس حيث انتهى به المجلس (١) .

* * *

* شَفَقَتُهُ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

الشفقة رقة في القلب ، ورحمة تجعل المتعلى بها يميل دائما إلى
الرفق والحنو على كل من يحيطون به ، ولقد كان رسول الله صلى الله
عليه وسلم أرفق الناس وأشفقهم ؛ يرفق بالحيوان ويحض المسلمين على
ذلك ، فيقول لهم حين يسأل سائلهم : أفى الحيوان صدقة يا رسول الله ؟ .
« وَفِي كُلِّ ذَاتِ كَبِدٍ حَرٌّ أَجْرٌ » (٢) . ويقول عليه الصلاة
والسلام : « إِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا
الذَّبْحَةَ . وَلْيُحِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ ، وَلْيُرِخْ ذِيحَتَهُ » (٣) .
ولا عراة أن نجد الرسول صلى الله عليه وسلم يرى رجلا
أضجع شاة وهو يحد شفرته ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم :
« أَتُرِيدُ أَنْ تُمِيتَهَا مَوْتًا ... »

هَلَّا أَحَدَدْتَ شَفْرَتَكَ قَبْلَ أَنْ تُضَجِّعَهَا (٤) ... »

(١) ص ٢٨٩ ج ١ : شرح الشفا .

(٢) رواه الحاكم : ص ١٣١ ج ٢ الجامع الصغير .

(٣) رواه أحمد ومسلم والنسائي وابن ماجه . ص ٤٧ . ج ٨ نيل الأوطار

(٤) رواه الطبراني في الكبير والأوسط ، والحاكم ، وقال : صحيح

على شرط البخاري . ص ٨٠ ج ٣ الترغيب والترهيب .

ومرّ صلى الله عليه وسلم ببعير قد لصق ظهره ببطنه . . .
فقال صلى الله عليه وسلم لأصحابه : « اتَّقُوا اللَّهَ فِي هَذِهِ
الْبَهَائِمِ الْمُعْجَمَةِ ؛ فَارْكَبُوهَا صَالِحَةً ، وَكُلُّوها صَالِحَةً ^(١) » .
وما ذلك إلا من فرط شفقتك صلى الله عليه وسلم بهذه الكائنات
الحية من ناحية ، وخوفا على أمته من أن يصيبها العذاب من ناحية
أخرى ، وتربية لها على الرحمة والرفق حتى تستحق رحمة الله تعالى ،
كما يقول صلى الله عليه وسلم : « مَنْ لَا يَرْحَمُ مَنْ فِي
الْأَرْضِ ، لَا يَرْحَمُهُ مَنْ فِي السَّمَاءِ ^(٢) » .

ويقول صلى الله عليه وسلم : « الرَّاحِمُونَ يَرْحَمُهُمُ الرَّحْمَنُ ،
ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمَكُمُ مَنْ فِي السَّمَاءِ ^(٣) » .
ولذلك نجده صلى الله عليه وسلم يضرب الأمثلة لأصحابه ،
يُربيهم على الرفق والشفقة . فعن أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما ،
قالت : صلى النبي صلى الله عليه وسلم صلاة السكوف ، فقال :
« دَنْتُ مِنِّي النَّارَ حَتَّى قُلْتُ : أَيُّ رَبٍّ وَأَنَا مَعَهُمْ ؟ »
فإذا امرأة (حسبت أنه قال) تَخْدِشُهَا هِرَّةٌ . . .
قال صلى الله عليه وسلم : « مَا شَأْنُ هَذِهِ ؟ »
قالوا : حَبَسَتْهَا حَتَّى مَاتَتْ جَوْعاً ^(٤) .

(١) رواه أبو داود وابن ماجه : ص ٨٣ المصدر السابق .

(٢) رواه الطبراني عن ابن مسعود : المصدر السابق .

(٣) رواه أبو داود ، والترمذي ، عن عبد الله بن عمرو بن العاص :

ص ٧٩ المصدر السابق . (٤) رواه البخاري : ص ٨٤ المصدر السابق .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « دنا رجل إلى بئر فنزل فشرب منها ، وعلى البئر كلب يلهث ، فرحمه ، فنزع أحد خفيه فسقاه .. فشكر الله له ، فأدخله الجنة (١) » .
 وإذا كانت هذه شفقتة صلى الله عليه وسلم بالحيوانات ، فإنه عليه الصلاة والسلام كان بالضعفاء من الناس أشفق وأرحم ..
 فعن أبي مسعود البدرى رضى الله عنه قال : كنت أضرب غلاماً لي بالسوط . فسمعت صوتاً من خلفي : « اعلم أبا مسعود . »
 فلم أهتم الصوت من العصب . فلما دنا منى إذا هو رسول الله صلى الله عليه وسلم ! فإذا هو يقول . « اعلم أبا مسعود أن الله تعالى أقدر عليك منك على هذا الغلام .. »
 فقلت : لا أضرب مملوكاً بعده أبداً !

وفي رواية ، فقلت : يا رسول الله . هو حرٌّ لوجه الله تعالى . فقال : « أما لو لم تفعلْ لَفَعَحْتُكَ النارُ ، أو لَمَسْتُكَ النارُ (٢) » .
 وإذا كان هذا الجانب من رحمته صلى الله عليه وسلم كما رأينا ، فإن جانباً أخطر منه وأعظم قد ترجم عنه القرآن الكريم في قول الله تعالى :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ ، حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ ، بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (٣) ﴾ .

-
- (١) رواه الشيخان وأبو داود وابن حبان - الترغيب والترهيب :
 ج ٨ ص ٣ (٢) رواه مسلم وأبو داود والترمذى - الترغيب والترهيب :
 ج ٣ ص ٨٤ . (٣) سورة التوبة : ١٢٨

فحين يُشأفه قوم من أهل مكة ، ويتحدونه بقولهم :

﴿ اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقُّ مِنْ عِنْدِكَ

فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَابَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوْ اثْنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ .

فلم يطلب من ربه أن ينزل عليهم ما سألوا من العذاب ، بل كان موقفه كما عبر عنه عبد الله بن عمر ، رضى الله عنهما ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول الله تعالى ، حكاية عن سيدنا إبراهيم :

﴿ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لأَصْلَاتِكَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ ،

فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ، وَمَن عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ ،

وقول عيسى عليه السلام : ﴿ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ،

وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

فرفع يديه وقال : « اللَّهُمَّ !.. أُمَّتِي ، أُمَّتِي !.. وبكى !..

فقال الله عز وجل :

[يا جبريل ، اذهب إلى محمد - وربك أعلم - فسله ما يُبكيك ؟]

فأتاه جبريل عليه السلام فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه

وسلم بما قال - والله تعالى أعلم ! .

فقال الله تعالى : [يا جبريل ، اذهب إلى مُحَمَّدٍ ،

فَقُلْ لَهُ : إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ ^(١)] .

ومن هذا أيضا ما يرويه أبو هريرة رضى الله عنه عن النبي

صلى الله عليه وسلم ، أنه قال :

(١) رواه مسلم في كتاب الإيمان - القاج : ج ٣ ص ٢٥٨

« لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ ، فَتَعَجَّلْ كُلُّ نَبِيٍّ دَعْوَتَهُ .
وَلِيَّيْ أَخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَهِيَ نَائِلَةٌ
- إِنْ شَاءَ اللَّهُ - مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا (١) » .
وكانت شفقة الرسول - صلى الله عليه وسلم - بأمة تعظمها في كل
أحوالها ، حتى في العبادة .

فمن عائشة رضي الله عنها قالت : كان رسول الله صلى الله عليه
وسلم إذا أمرهم من الأعمال بما يُطيعون ، قالوا : إنا لسنا كهيتتك
يا رسول الله ، إن الله قد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر .
فيغضب حتى يعرف الغضب في وجهه ، ثم يقول :

« إِنْ أَتَقَّاكُمْ وَأَعْلَلَكُمْ بِاللَّهِ أَنَا (٢) » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « عَلَيْكُمْ بِمَا تُطِيقُونَ -
مِنَ التَّطَوُّعِ الزَّائِدِ عَنِ الْفَرَائِضِ .. فَوَاللَّهِ لَا يَمَلُّ اللَّهُ حَتَّى
تَمَلُّوا .. وَكَانَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَى اللَّهِ مَا دَاوَمَ عَلَيْهِ صَاحِبُهُ (٣) » .
وقال لعبد الله بن عمرو رضي الله عنهما : « أَلَمْ أَخْبِرْ أَنَّكَ تُفُومُ
الليل وتصوم النهار ؟ » قلت : أفعل ذلك يا رسول الله .

قال : « فَإِنَّكَ إِذَا فَعَلْتَ هِجْنَتَ عَيْنِكَ (٤) وَتَفَهْتَ نَفْسُكَ (٥) ..
وَإِنْ لِنَفْسِكَ حَقًّا وَلِأَهْلِكَ حَقًّا .. فَصُومْ ، وَأَفْطِرْ ، وَقُمْ ، وَتَمَّ (٦) » .

(١) رواه الشيخان والترمذي - المصدر السابق .

(٢) رواه البخاري - التاج : ج ١ ص ٤٢

(٣) من حديث لعائشة ، رواه الخمسة . (٤) هجنت : ضعفت وغارت .

(٥) سئمت وكلت . (٦) رواه البخاري - التاج : ج ١ ص ٤١

وإن الباحث ليجد عديدا من هذه الصور في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وتوجيهاته لأمة . وصدق الله حيث يقول .
(وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ)

* * *

* شَجَاعَتُهُ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم بالمكان الذي لا يجهله أحد في شجاعته . فقد حصر المواقف الصعبة ، وفرد الكُفَّةَ والأنطال عنه غير مرة ، وهو ثابت لا يرح ، ويُقبل لا يُدبر ولا يتزحزح . . . وما من شجاع إلا وقد أُحصيت له فرة ، وحفظت عنه حولة ، سواء صلى الله عليه وسلم . . .

١ - عن أبي إسحق الهمداني الكوفي - تابعي جليل - أنه سمع البراء بن عازب يسأله رجل : أفررتم يوم حنين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ قال : لكن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يفر ، ثم قال : لقد رأيته على بغلته البيضاء ، وأبو سفيان آخذ بلجامها ، والنبي صلى الله عليه وسلم يقول :

« أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبُ . . . أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ . . . »
قيل : فما رُئِيَ أحد يومئذ أشد منه .

٢ - وذكر مسلم عن العباس رضي الله عنه ، قال :
فلما التقى المسلمون والكفار ، ولَّى المسلمون مُدْبِرِينَ . . .
فطفق رسول الله صلى الله عليه وسلم يركض بغلته ، وأنا آخذ بلجامها أكفها ، إرادة ألا تسرع ، وأبو سفيان آخذ بركابه .

ثم نادى : يا للمسلمين^(١) يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ..
يا معشر الأنصار الذين آووا ونصروا .. إن محمداً حىّ .. فهلمّوا .
وكرر العباس النداء ، حتى تجاوبت في كل جنبات الوادي أصداؤه^(١) .
قال ابن عمر رضى الله عنهما .

ما رأيت أشجع ولا أجد من رسول الله صلى الله عليه وسلم^(٢) !
٤ — وقال على كرم الله وجهه :

وإنا كنا إذا حمى الناس ، واحمرت الحداق ، اتعينا برسول الله
صلى الله عليه وسلم .. فما يكون أحد أقرب إلى العدو منه ! .
وقيل : كان الشجاع هو الذى يقترب منه رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، إذا دنا العدو ، لقربه منه^(٣) .. !

٥ — وقال عمران بن الحصين : ما لقي رسول الله صلى الله عليه
وسلم كتيبة إلا كان أول من يصرّب ! . ولما رآه أبى بن خلف
يوم أحد وهو يقول : أين محمد ؟ لا نجت إن نجا .
وقد كان يقول للنبي صلى الله عليه وسلم حين افتدى يوم بدر :
عندى فرس أعلفها كل يوم فرقا من ذرة أقتلك عليها .

فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : « أَنَا فَاتِلُكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ .. »
فلما رآه يوم أحد ، شدّ أبى على فرسه على رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، فاعترضه رجال من المسلمين . فقال النبي صلى الله عليه
وسلم (لأصحابه) : « هكذا » (مشيراً إلى أبى) أى خلوا طريقه .

(١) حياة محمد ، لهيكل : ص ٤٧٠

(٢) رواه الدارمى - شرح الشفا : ج ١ ص ٢٥٧

(٣) رواه أحمد ، والنسائى - شرح الشفا : ج ١ ص ٢٥٨

وتناول المحربة من الحارث بن الصُّمَّة ، فانتفض بها انتفاضة فتطايروا^(١) عنه تطاير السُّعراء عن ظهر البعير إذا انتفض ! ثم استقبله النبي صلى الله عليه وسلم ، فطعنه في عنقه طعنة تدأداً^(٢) منها عن فرسه مرارا ، فرجع إلى قريش يقول : قتلني محمد ... الحديث^(٣) .
(رواه أبو الشيخ في الأُخلاق)

عن أنس رضي الله عنه ، قال : كان صلى الله عليه وسلم أحسن الناس ، وأجود الناس ، وأشجع الناس ...

لقد فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق ناس قبيل الصوت ؛ فتلقاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم راجعا ، قد سبقهم إلى الصوت ، واستبشروا الخبر على فرس لأبي طلحة عُرِّي ، والسيوف في عنقه ، وهو يقول : « لَنْ تُرَاعُوا »^(٤) .

٧ — ذهبت قريش إلى أبي طالب ، فقالوا له : يا أبا طالب ، إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا . وإنا قد استنهبيناك عن ابن أخوك ، فلم تنه عنا . وإنا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا ، وتسفيه أعلامنا ، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا ، أو تنازله وإياك في ذلك حتى يهلك أحد الفريقين ! أو كما قالوا ، ثم انصرفوا عنه ..
فعظم على أبي طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بإسلام^(٥) رسول الله صلى الله عليه وسلم (لهم) ولا حذلاته .

(١) ابتعدوا بسرعة كما يطير شعر البعير إذا انتفض .

(٢) تمايل . (٣) شرح الشفا : ج ١ ص ٨٩

(٤) رواه الشيخان - الشفا : ج ١ ص ٢٥٨ ، ٢٥٩

(٥) تسليمه لقريش والتخلي عن مناصرته .

قال ابن إسحاق : حين قالت قريش لأبي طالب هذه المقالة ،
بعث إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له : يا ابن أخي ،
إن قومك قد جاءوني ، فقالوا لي كذا وكذا (لذي كانوا قالوا له)
فأبق على وعلى نفسك ، ولا تحملي من الأمر ما لا أطيق .

قال : فظن الرسول صلى الله عليه وسلم أنه قد بدا لعمه فيه بداء
(رأى جديد) وأنه خاذله ومُسلمه ، وأنه قد ضعف عن نصرته والقيام
معه . قال : فقال (له) رسول الله صلى الله عليه وسلم

« يَا نَبِيَّ ، وَاللَّهِ لَوْ وَضَعُوا الشَّمْسَ فِي يَمِينِي ،
وَالْقَمَرَ فِي يَسَارِي ، عَلَى أَنْ أَتْرِكَ هَذَا الْأَمْرَ
حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ أَهْلِكَ فِيهِ : مَا تَرَكْتُهُ » (١) .

• حَيَاؤُهُ : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

الحياء هو إغضاء الإنسان وتغافله عما يكره بطبيعته .
ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الناس حياء ،
وأكثرهم عن الأمور إغضاء . ولقد وصف القرآن ذلك الخلق فيه ، فقال
تعالى : ﴿ إِنَّ ذَلِكَ كَانَتْ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَعْجِلُ مِنْكُمْ ﴾ (٢) .
١ — فعن أبي سعيد الخدري رضى الله عنه (٣) : كان رسول الله
صلى الله عليه وسلم أشد حياء من العذراء في خدرها ..
وكان إذا كره شيئا عرفناه في وجهه ..

(١) ص ١٧١ ، ١٧٢ : ج ١ سيرة ابن هشام .

(٢) الأحزاب : ٥٣ (٣) روى في الصحيحين ، والترمذي

في الشايل ، وابن ماجه في الزهد — شرح الشفا : ج ١ ص ٢٦٢

وكان صلى الله عليه وسلم لطيف البشارة^(١) رقيق الظاهر ، لا يُشافه أحدا بما يكره ، حياء وكرم نفس ..!

٢ — وعن عائشة رضى الله عنها^(٢) : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بلغه عن أحد ما يكرهه ، لم يقل : ما بال فلان يقول كذا ، ولكن يقول : « ما بال أقوام يصنعون ، أو يقولون كذا . » ينهى عنه ولا يسمى فاعله .

٣ — وروى عن أنس رضى الله عنه^(٣) : أن رجلا دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه أثر صبرة . وكان النبي صلى الله عليه وسلم قلما يُواجه رجلا في وجهه بشيء يكرهه .. فلما خرج ، قال : « لو أمرتم هذا أن يغسل هذا عنه . »

٤ — وروى عن عبد الله بن عمرو بن العاص أنه صلى الله عليه وسلم كان من حيائه لا يُشت بصره في وجه أحد ، وأنه كان يُكنى عما اضطره الكلام إليه مما يكره^(٤) (بصيغة المبني للمجهول كما ضبطه الحلبي) مما لا يستحسن التصريح به ، تخلفا بأحلاق ربه ، واقتداء بأدبه في نحو قوله تعالى :

﴿ ... أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِّنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسْتُمُ النِّسَاءَ ﴾^(٥) .

ومن حديثه صلى الله عليه وسلم :

« ... إذا كنتم تستنجح ، فاصنع ما شئت »^(٦) .

(١) رقيق الجلد العليا ، أى يتغير لأذنى شيء يكرهه - المصدر السابق .

(٢) رواه أبو داود - شرح الشما : ج ١ ص ٢٦٣

(٣) رواه أبو داود ج ٢ ص ٣٩٩ - المصدر السابق .

(٤، ٥) شرح الشما : ج ١ ص ٢٦٤

(٦) رواه الترمذى في الشمائل - المصدر السابق : ص ٢٦٥

وقال أحد الشعراء (١) :

إذا لم تخش عاقبة الليالي ولم تستحي (٢) فاصنع ما تشاء
فلا والله ما في العيش خير ولا الدنيا إذا ذهب الحياه

* حِفْظُ اللَّهِ تَعَالَى لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

١ — أبو جهل يحاول قتل الرسول

صلى الله عليه وسلم ، فيعصمه الله :

قال أبو جهل لقومه : يا معشر قريش : إن محمداً قد أتى إلّا
ما ترون من عيب ديننا ، وشتم آبائنا ، وتسفيه أحلامنا ، ومبت
آلهتنا . وإنى أعاهد الله لأجلسن له غداً بحجر ما أطيق حملة - أو كما
قال - فإذا سجد في صلاته ، فضضخت (٣) به رأسه . فأسلموني عند
ذلك أو امنعوني ، فليصنع بي بنو عبد مناف ما بدا لهم .

قالوا : والله لا نسلك لشيء أبداً ، فامض لما تريد .

فلما أصبح أبو جهل أخذ حجراً - كما وصف - ثم جلس
لرسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظره . . وغدا رسول الله صلى الله
عليه وسلم كما كان يغدو . . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم
بمكة وقبلته إلى الشام ، فكان إذا صلى ، صلى بين الركن اليماني
والحجر الأسود ، وجعل السكعة بينه وبين الشام . .

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ، وقد غدت قريش
فجلسوا في أنديتهم ينتظرون ما أبو جهل فاعل . .

(١) قد ضمن هذا الشاعر معنى الحديث في شعره .

(٢) مجزوم بحذف حرف العلة ، فتثبت الياء الأولى .

(٣) فضضخت : أى كسرت .

فلما سجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، احتمل أبو جهل الحجر ، ثم أقبل نحوه . حتى إذا دنا منه رجع منهزماً ممتقعاً لونه ، مرعوباً ، قد يبست يده على حَجَرِهِ حتى قذف الحجر من يده .
وقام إليه رجال قريش ، فقالوا له : مالك يا أبا الحكم ؟
قال : قمت إليه لأفعل « ما قلت لكم البسارحة . فلما دنوت منه عرض لي دونه فحل من الإبل . لا والله ما رأيت مثل هامته ولا مثل قَصْرَتِهِ (١) ولا أنيابه لفحل قط . فهم بي أن يا كفى .
قال ابن إسحاق : فذكر لي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :
« ذاك جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ . لَوْ دَنَا لَأَخَذَهُ » (٢) .

* * *

٢ - الْقَوْمُ يُرِيدُونَ إِيْذَاءَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَاللَّهُ يَحْفَظُهُ :

عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال : قلت لعروة بن الزبير :
ما أكثر ما رأيت قريشاً أصابوا من رسول الله صلى الله عليه وسلم
فيما كانوا يظهرون من عداوته ؟ قال : حضرتهم ، وقد اجتمع
أشرافهم يوماً في الحجِجْر فذكروا رسول الله صلى الله عليه وسلم .
فقالوا : ما رأينا مثل ما صبرنا عليه من أمر هذا الرجل قط . .
قد سفه أعلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ،
وسب آلهتنا . لقد صبرنا منه على أمر عظيم - أو كما قالوا . .
فبينما هم في ذلك : إذ طلع رسول الله صلى الله عليه وسلم . .
فأقبل يمشي حتى استلم الركن . . ثم مر بهم طائفاً بالبيت .

(١) القصرة : أصل العنق . (٢) ابن هشام ج ١ ص ١٩٤

فلما مرّ بهم ، غمزوه ببعض القول
 قال : فمرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم .
 قال : تم مضى . فلما مرّ بهم الثانية . غمزوه بمثلها . .
 فمرفت ذلك في وجهه . ثم مرّ بهم الثالثة ، فغمزوه بمثلها . .
 فوقف ، ثم قال : « أسمعون يا معشر قريش .
 أما والذي نفسي بيده : لقد جئتكم بالذبح . . ١١٠ »
 قال : فأخذت القوم كلته حتى ما منهم رجل إلا كأنما على رأسه
 طائر ! إن أشدّهم فيه وصاةً (أى أذى شديداً) قبل ذلك ليرفؤه (١)
 بأحسن ما يجده من القول ، حتى إنه ليقول :
 انصرف يا أبا القاسم ، فوالله ما كنت جهولا .
 قال : فانصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا كان
 الغد ، اجتمعوا في الحجر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما
 بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه .
 فبينما هم في ذلك ، طلع عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فوثبوا
 إليه وثبة رجل واحد ، وأحاطوا به يقولون : أنت الذي تقول :
 كذا وكذا ، (لما كان يقول من عيب آلهم ودينهم) .
 فيقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « نعم ، أنا الذي أقول ذلك . »
 قال : فلقد رأيت رجلا منهم أخذ بجمع رداءه .
 قال : فقام أبو بكر رضى الله عنه دونه ، وهو يبكي ويقول :
 أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ ؟
 ثم انصرفوا عنه . فإن ذلك لأشد ما رأيت قريشا نالوا منه قط (٢) .

(١) يرفؤه : يهدئه . (٢) ابن هشام : ج ١ ص ١٨٢ ، ١٨٨

٣ — الله تبارك وتعالى يكفى رسوله

صلى الله عليه وسلم أمر المستهزئين .

كان عظماء المستهزئين برسول الله صلى الله عليه وسلم خمسة نفر من قومه . وكانوا ذوى أسنان^(١) وحرف في قومهم .

من بنى أسد ، (عبد العزى بن قصى بن كلاب) : الأسود بن المطالب بن أسد (أبو زمعة) . وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغنى - قد دعا عليه لما كان يبلغه من أذاه واستهزائه به . فقال : « اللَّهُمَّ أَغْمِرْ بَصَرَهُ ، وَأَثْكِلْهُ وَلَدَهُ »

ومن بنى زهرة بن كلاب : الأسود بن يغوث بن وهب بن عبد مناف بن زهرة . ومن بنى مخزوم بن يقظة بن مرة :

الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم

ومن بنى سهم (عمرو بن هصيص بن كعب) : العاص بن وائل ابن هشام . ومن بنى خزاعة : العمار بن الطلائة بن عمرو ابن العمار بن عبد عمرو بن لؤى بن ملسكان .

فلما تبادوا في الشر وأكثروا برسول الله صلى الله عليه وسلم الاستهزاء ، أنزل الله تعالى عليه :

﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ ، وَأَعْرِضْ عَنِ الْشُرَكِيَّ .
إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ . الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ ،
فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴾ . (الحجر : ٩٤-٩٦)

(١) أسنان : كبار السن .

قال أنس في هذه الآية : مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم
فغمزه بعضهم ، فجاء جبريل أحسّبه قال فغمزهم ، فوقع في أجسادهم
كهيفة الطعنة فماتوا (١) .

* * *

٤ — قریش تأتمر على قتل الرسول صلى الله عليه وسلم ،
فيحفظه ربه ، ويطلعه على تأمرهم :
حين اجتمع كفار مكة في دار الندوة ، لينشاوروا في شأن
رسول الله صلى الله عليه وسلم . قال بعضهم لبعض : إن هذا الرجل
قد كان من أمره ما قد رأيتم .. فأبنا والله ما نأمنه على الوثوب
علينا ، فيمن قد اتبعه من غيرنا . فأجمعوا فيه رأيا .
قال : فتشاوروا .. ثم قال قائل منهم : احبسوه في الحديد
وأغلقوا عليه بابا . ثم تربصوا به ما أصاب أشباهه - من الشعراء
الذين كانوا قبله : زهير والنابعة ، ومن مضى منهم - من هذا
الموت ، حتى يصيبه ما أصابهم
فقال الشيخ النجدي (وهو إبليس الذي تزيا بزي أهل نجد) :
لا والله ما هذا لكم برأى . والله لئن حبستموه - كما تقولون -
ليخرجن أمره من وراء البساط الذي أغلقتم دونه إلى أصحابه ،
فلاؤشكوا أن يشبوا عليكم ، فينزعوهم من أيديكم ؛ ثم يكاثروكم به
حتى يغلبوكم على أمركم . ما هذا لكم برأى . فانظروا في غيره .
فتشاوروا ، ثم قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا فننفيه
من بلادنا .. فإذا خرج عنا ، فوالله ما نبالي أين ذهب ولا حيث وقع
إذ غاب عنا وفرغنا منه .. فأصلحنا أمرنا وألفتنا كما كانت .

(١) تفسير ابن كثير : ج ٢ ص ٥٥٩ - وسيرة ابن هشام : ج ٢ ص ٢٧٧

فقال الشيخ النجدي : لا والله ما هذا لكم برأى . ألم تروا حسن حديثه ، وحلاوة منطقه ، وغلبته على قلوب الرجال بما يأتي به ؟ ! والله لو فعلتم ذلك ، ما أمنتكم أن يحصل على حى من العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه حتى يتابعوه عليه ، ثم يسير بهم إليكم حتى يطأكم بهم في بلادكم ، فيأخذ أمركم من أيديكم ، ثم يفعل بكم ما أراد . دبروا فيه رأيا غير هذا .

قال : فقال أبو جهل بن هشام : والله إن لى فيه لرأيا ما أراكم وقستم عليه بعد . قالوا : وما هو يا أبا الحكم ؟

قال : أرى أن تأخذ من كل قبيلة فتى شابا جليدا نسيبا وسيطا فينا ، ثم تعطى كل فتى منهم سينا صارما ، ثم يعمدوا إليه فيضربوه ضربة رجل واحد فيقتلوه ، فنستريح منه ، فإنهم إذا فعلوا ذلك ، تفرق دمه في القبائل جميعا ، فلم يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعا .. فرضوا منا بالعقل^(١) فمقلناه لهم .

قال : فقال الشيخ النجدي : القول ما قال الرجل . هذا الراى لا رأى غيره . فتفرق القوم على ذلك وهم مجمعون له .

قال : فأتى جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : لا تبث هذه الليلة على فراشك الذى كنت تبث عليه .

قال : فلما كانت عتمة الليل ، اجتمعوا على بابه ، يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه .

فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم مكانهم ، قال لعل ابن أبى طالب :

(١) العقل : الدية .

« تَمَّ عَلَى فَرَاشِي وَتَسَجَّ (١) بُرْدِي هَذَا الْحَصْرِي الْأَحْصَرِ
فَمِنْ فِيهِ . فَإِنَّهُ لَنْ يَخْلُصَ إِلَيْكَ شَيْءٌ تَسْكُرُهُ مِنْهُمْ » .

وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَنَامُ فِي بُرْدِهِ ذَلِكَ إِذَا نَامَ .
وَحَرَجَ عَلَيْهِمْ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَأَخَذَ حَفْنَةً مِنْ تَرَابٍ
فِي يَدِهِ ، فَجَعَلَ يَنْثُرُ ذَلِكَ التَّرَابَ عَلَى رُؤُوسِهِمْ وَهُوَ يَقُولُ هَذِهِ الْآيَاتُ
مِنْ « يَس » : ﴿ يَسَّ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ .
عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلَ الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ . لِتُنذِرَ قَوْمًا
مَّا أُنْذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ . لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ
فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ . إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى
الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ
خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ ﴾ . (يَس : ١ - ٩)

حَتَّى فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ هَذِهِ الْآيَاتِ ،
وَلَمْ يَبْقَ مِنْهُمْ رَجُلٌ إِلَّا وَضَعَ عَلَى رَأْسِهِ تَرَابًا ، وَانْطَلَقَ لِحَاجَتِهِ .
فَاتَّامَ آتٍ فَأَحْبَرَهُمْ بِخُرُوجِ عَجْدٍ ، وَبِمَا فَعَلَ بِهِمْ .

قَالَ : فَوَضَعَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْهُمْ يَدَهُ عَلَى رَأْسِهِ ، فَإِذَا عَلَيْهِ تَرَابٌ .
ثُمَّ جَعَلُوا يَتَطَلَّعُونَ فَيَرَوْنَ عَلِيًّا عَلَى الْفَرَاشِ مَتَسَجِّيًا بُرْدَ رَسُولِ اللَّهِ
صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَيَقُولُونَ : وَاللَّهِ إِنْ هَذَا لِمُحَمَّدٍ نَائِمًا عَلَيْهِ بُرْدُهُ .
فَلَمْ يَبْرَحُوا كَذَلِكَ حَتَّى أَصْبَحُوا . فَقَامَ عَلَى رُضَى اللَّهِ عَنْهُ
مِنَ الْفَرَاشِ ، فَقَالُوا : وَاللَّهِ لَقَدْ كَانَ صَدَقْنَا الَّذِي حَدَّثَنَا .

(١) تَسَجَّ ، بَمَتَّحِ النَّاءِ وَالسِّينِ وَالْجِيمِ الْمَشْدُودَةِ : تَغَطَّى .

وكان مما أُرسل الله عز وجل من القرآن في ذلك اليوم وما كانوا
أجمعوا له : ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ
أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ،
وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴾ . (الأنفال : ٣٠)

﴿ أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَتَرَبَّصُّ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ . قُلْ
تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ ^(١) ﴾ . (الطور : ٣٠ ، ٣١)

هـ — رب محمد صلى الله عليه وسلم يحفظه من سُرَاقَة بن مالك :
عن سُرَاقَة بن مالك بن جُعشم ، قال :

لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكة مهاجراً إلى
المدينة ، جعلت قريش فيه مائة ناقة لمن رده عليهم .

قال : فبينما أنا جالس في نادى قومي ، إذ أقبل رجل منا حتى
وقف علينا ، فقال : والله لقد رأيت رَكَبَةً ثلاثة مروا على آفأ ،
إني لأراهم محمداً وأصحابه .

قال : فأومأت إليه بعيني أن اسكت ، ثم قلت : إنما هم بنو فلان
يبتغون ضالة لهم . قال : لعلهم . ثم سكت . قال : ثم مكثت قليلا ،
ثم قمت فدخلت بيتي ، ثم أمرتُ بفرسي فَنَهِدَ لِي إلى بطن الوادى ،
وأمرتُ بسلاحى فأخرج لِي من دُبُر حجرتي ، ثم أخذت قدامى
التي أَسْتَقْسِمُ بها ، ثم انطلقت فلبست لأمتي ^(٢) ثم أخرجت قدامى
فأستقسمت بها ، فخرج السهم الذى أكره « لا يعرُّه » .

(١) ابن هشام بتصريف : ج ٢ ص ٣٣٣ ، ٣٣٤

(٢) الأئمة : ما يلبس عند الحرب .

: قال : وكنت أرجو أن أردّه على فريش فأخذ المائة الناقة ،
 قال : فركبت على أثره . . . فبينما فرسى يشتد بي ، عثر بي ، فسقطت عنه .
 قال : فقلت : ما هذا ؟ قال : ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها
 فخرج السهم الذي أكره « لا يضرّه » . قال : فأبيت إلا أن أتبعه
 فركبت في أثره ، فبينما فرسى يشتد بي عثر بي فسقطت عنه ، فقلت :
 ما هذا ؟ ثم أخرجت قداحي فاستقسمت بها ، فخرج السهم الذي أكره
 « لا يضرّه » . فأبيت إلا أن أتبعه ، فركبت في أثره ، فلما بدا لي القوم
 ورأيتهم عثر بي فرسى . فذهبت يداي في الأرض وسقطت عنه ، ثم انزع
 يديه من الأرض وتبعهما دحان كالأعصار ، فعرفت - حين رأيت ذلك -
 أنه قد منع مني ، وأنه طاهر ، فناديت القوم فقلت : أيا مُراقّة
 ابن جُعشم . انظروني أكلمكم ، فوالله لا أريكم^(١) ولا يأتكم مني شيء ،
 تسكرهونه . قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر :
 « قل له : وما تبغى منا ؟ » فقال لي أبو بكر ذلك ، قلت : تكتب
 لي كتاباً يكون آية بيني وبينك قال : « اكتب له يا أبا بكر^(٢) » .

٦ — بعض آيات من القرآن الكريم تتحدث

عن حفظ الله لرسوله صلى الله عليه وسلم :

قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ
 رَبِّكَ ، وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ، وَاللَّهُ يَفْصِلُكَ
 مِنَ النَّاسِ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾ .
 (المائدة : ٦٧)

(١) لا أطلب إساءة لكم . (٢) ابن هشام بتصريف : ج ٢ ص ٣٣٨ ، ٣٣٩

وقال تعالى : ﴿ وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنَا ،
وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ ﴾ . (الطور : ٤٨)
وقال تعالى : « أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ ، وَيُخَوِّفُونَكَ
بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾ .
(الزمر : ٣٦)

٧ - الله عز وجل يمنع رسوله

صلى الله عليه وسلم من أعدائه :

عن عائشة رضى الله عنها قالت : كان النبي صلى الله عليه وسلم
يُخْرِسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ .
فَأَخْرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَأْسَهُ مِنَ الْقَمِيَّةِ ، فَقَالَ لَهُمْ :
« يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْصَرِفُوا فَقَدْ عَصَمَنِي رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ ^(١) » .
وروى ابن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا نزل منزلاً ،
اختار له أصحابه شجرةً يَتَّقِلُ تَحْتَهَا ..

فأتاه أعرابي فاخترط سيفه . ثم قال : من يمنعك مني ؟

فقال : « الله ، عَزَّ وَجَلَّ » ..

فأرعدت يد الأعرابي وسقط سيفه ، وضرب برأسه الشجرة ،
حتى سال دماغه . فنزلت الآية : ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ^(٢) ﴾ .
وقد روى أنه عليه الصلاة والسلام وقع له مثلها في غزوة غطفان
- بنى أتمر - مع رجل اسمه دعثور بن الحارث ، وأن الرجل أسلم ،
فلما رجع إلى قومه الذين أغروه - وكان سيدهم وأشجعهم - قالوا له :
أين ما كنت تقول ، وقد أمكنك ؟

فقال : إني نظرت إلى رجل أبيض طويل دفع في صدرى ،
فوقعت لظهرى ، وسقط السيف ، فعرفت أنه ملك ، وأسلمت .
قيل : وفيه نزلت : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا
نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ
أَيْدِيَهُمْ ، فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ ^(١) ۝ .

وفي رواية الحارث : أن عورت بن الحارث المعاري أراد
أن يهتك بالنبي صلى الله عليه وسلم ، فلم يشعر به إلا وهو قائم
على رأسه مُنتفضاً سيفه ..

فقال : « اللَّهُمَّ اكْفِنِيهِ بِمَا شِئْتَ » .

فانكب من وجهه من رُلْحَةٍ ^(٢) بين كتفيه ، ومذر سيفه من يده .
وقيل : كان صلى الله عليه وسلم يخاف قريشاً ، فلما نزلت هذه الآية :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ
قَوْمٌ أَنْ يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ . . . ﴾ إلخ الآية استلقى .
ثم قال : « مَنْ شَاءَ فَلْيَخُذْ لِي » .

وذكر ابن إسحاق أن حمالة الخطب لما بلغها نزول قوله تعالى :
﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ ، وذكرها بما ذكرها الله مع زوجها
من الذم . أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو جالس في المسجد
ومعه أبو بكر ، وفي يدها نهر ^(٣) من حجارة . فلما وقفت عليهما ، لم تر
إلا أبا بكر .. وأخذ الله تعالى يبصرها عن نبيه صلى الله عليه وسلم .

(١) المائدة : ١١ (٢) والزلحة : بضم الزاي وفتح اللام
المشددة : وجع الظهر . (٣) النهر : الحجر قدر ما يملأ الكف .

فقلت : يا أبا بكر : أين صاحبك ؟ فقد بلغنى أنه يهجونى .
والله لو وجدته ، لضربت بهذا الفهر فاه ! .

وعن الحكم بن أبى العاص ، قال :
تواعدنا على النبى صلى الله عليه وسلم ، حتى إذا رأيناه بمعنا
صوتنا خلفنا ، ما ظننا أنه بقى بتهامة أحد .. فوقعنا مغشياً علينا ..
فما أفقنا حتى قصى صلاته ، ورجع إلى أهله .
ثم تواعدنا ليلة أخرى ، فاجتئنا حتى إذا رأيناه ، جاءت الصفا
والمروة ، فمحلت بيننا وبينه ..

وجاء فيما ذكر ابن إسحاق وغيره أن أبا جهل جاء النبى صلى الله
عليه وسلم بصخرة وهو ساجد .. وقريش ينظرون ليطرحها عليه ،
فلزقت بيده ، ويبست يدها إلى عنقه ، وأقبل يرجع القهقرى إلى خاله !
ثم سأله أن يدعو له ففعل ، فانطلقت يدها !
وكان قد تواعد مع قريش بذلك ، وحلف أن رآه ليدمغه .
فسألوه عن شأنه ، فدكر أنه : عرض لى دونه فعل ، ما رأيت
مثله قط ، هم بي أن يأكلنى ..

فقال النبى صلى الله عليه وسلم :
« ذَاكَ جِبْرِيلُ ، لَوْ دَنَا لَأَخَذَهُ .. » .

ومن ذلك ما ذكره ابن إسحاق فى قصته ، إذ خرج إلى بنى
قريظة فى أصحابه ، فجلس إلى جدار بعض آطامهم^(١) ، فانبعث
عمرو ابن جحاش (أحدهم) ليطرح عليه رحي ، فقام النبى صلى الله
عليه وسلم ، فانصرف إلى المدينة ، وأعلمهم بقصتهم .

(١) الآطام : الحصون المبنية بالحجارة .

وقد قيل : إنَّ قوله تعالى :
﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ
إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَنْ يَنْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ ﴾ .
نزلت في هذه القصة .

وحكى السمرقندى :

أنه خرج إلى بنى النضير يستعين في عقل (١) الكلابيين الذين
قتلها عمرو بن أمية . فقال له حبي بن أحطاب : احلس يا أبا القاسم
حتى نعلمك ونعطيك ما سألتنا .

فجلس النبي صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما .
وتآمر حبي مع قومه على قتله .

فأعلم جبريل عليه السلام النبي صلى الله عليه وسلم بذلك .
فقام كأنه يريد حاجته حتى دخل المدينة .

وذكر أهل التفسير معنى حديث أبي هريرة رضي الله عنه :
أن أبا جهل وعد قريشا لئن رأى محمدا يصلى ليطأن رقبتيه .
فلما صلى النبي صلى الله عليه وسلم أعلموه .. فأقبل .. فلما قرب
منه ولّى هاربا ، ناكها على عقبيه ، متقيا يديه .
فسئل . فقال : لما دنوت منه ، أشرفت على خندق مملوء نارا ،
كدت أهوى فيه ، وأبصرت هولا عظيما ، وحقق أجنحة قد ملأت
الأرض .. فقال صلى الله عليه وسلم :

« تِلْكَ الْمَلَائِكَةُ ، لَوْ دَنَا لَأَخْطَطَفْتُهُ : عُضُّوا عُضُّوا (٢) » .

(١) عقل : أى دية .

(٢) رواه أحمد ومسلم وغيرهما - ابن كثير : ج ٤ ص ٥٣٩

ثم أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم :

﴿ كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنَّاظٍ ، إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ . أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَىٰ الْهُدَىٰ . أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ . أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ . أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ . كَلَّا لَئِنْ لَّمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَنَّا بِالْأَنفِيسِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ نَادِيَهُ . سَدَّعُ الزَّبَانِيَةَ . كَلَّا لَا تُطِيعُهُ وَاسْجُدْ وَاقْتَرِبْ ۝ (١) .

ويروى أن شيبة بن عثمان الحجبي أدركه يوم حنين .. وكان حمزة قد قتل أباه وعمه . فقال : اليوم أدرك نأري من محمد . فلما اختلط الناس ، أتاه من خلفه ، ورفع سيفه ليضربه عليه . قال : فلما دنوت منه .. ارتفع إلى شواط من نار أسرع من البرق .. فوليت هاربا .. وأحسن بي النبي صلى الله عليه وسلم ، فدعاني . فوضع يده على صدرى .. وهو أبغض الخلق إلى .. فما رفعها : إلا وهو أحب الخلق إلى .. وقال لي : « أَدُنُّ فَقَاتِلْ . » فتقدمت أمامه أضرب بسيفي وأقيه بنفسى ، ولو لقيت أبى تلك الساعة لأوقعت به دونه !

وعن فضالة بن عمرو ، قال : أردت قتل النبي صلى الله عليه وسلم عام الفتح ، وهو يطوف بالبيت .. فلما دنوت منه قال : « أفضالة ؟ » قلت : نعم .

قال : « مَا كُنْتُ تُحَدِّثُ بِهِ نَفْسَكَ ؟ »

قلت : لا شيء .

فضحك واستغفر لى ، ووضع يده على صدرى ، فسكن قلبي !
فوالله ما رفعها ، حتى ما خَلَقَ الله شيئا أحبَّ إلىَّ منه ! .
ومن مشهور ذلك : خبر عامر بن الطفيل ، وأربد بن قيس ،
حين وفدا على النبي صلى الله عليه وسلم .
وكان عامر قال له : أنا أشغل عنك وجه محمد ، فأضربه أنت ..
فلم يره فعل شيئا . . فلما كلمه فى ذلك ، قال له : والله ما همت
أن أضربه إلا وجدتك بينى وبينه ! أفأضربك ؟ (١)
ومن ذلك نصره بالرعب أمامه مسيرة شهر ، كما قال صلى الله
عليه وآله وصحبه - وسلم ..

ويروى أن زينب بنت الحارث اليهودية أخت مرحب ذبحت عنزا
لها وطبختها وسَمَّتها .. فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم المغرب
وانصرف إلى منزله ، وجد زينب عند رحله .. فقدمت له الشاة هدية ..
فأسر بها فوضعت بين يديه . . وتقدم هو وأصحابه ليأكلوا ..
فتناول الذراع .. وتناول بشر بن البراء عظما ..

وانتهش (٢) رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم ازدرد ، وقال :

« كُفُّوا أَيْدِيَكُمْ ، فَإِنَّ هَذِهِ الشَّاةُ

تُخْبِرُنِي أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ .. » .

(١) هذه النصوص جميعها من كتاب « الشفا » للقاضى عياض .

بتصرف من ص ٢٩٠ - ٢٩٦ (٢) انتهش : أى قضم .

فقال بشر بن البراء :

والله يا رسول الله ، وجدت ذلك من أُسْكِنِي التي أُكَلَّت ..
فما منعني أن أَلْظُهَا إِلَّا كَرَاهِيَةً أَنْ أَنْعَصَ عَلَيْكَ طَعَامُكَ ..
فلم يَرُم^(١) بشر من مكانه حتى تغير ، ثم مات ..
ودعا رسول الله صلى الله عليه - وآله وصحبه - وسلم زينب ،
وقال : « سَمَّيْتُ الذَّرَاعَ ؟ »

قالت : مَنْ أَخْبَرَكَ ؟ قال : « الذَّرَاعَ . »

قالت : نعم . قال : « وَمَا حَمَلَكِ عَلَى ذَلِكَ ؟ »

قالت : قتلَ أبي وعمي وزوجي ، ونلتَ من قومي ما نلتَ ..
فقلت : إن كان نبيًا ، فستخبره الشاة . وإن كان ملكًا ،
استرحنا منه^(٢) .

(١) برم : أى يبرح . (٢) إمتناع الأسماع : ص ٣٢١

محمد : الداعى . . صلى الله عليه وسلم
قال تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا
وَنَذِيرًا ، وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاحًا مُنِيرًا ^(١) ﴾ .
اتفقت أحوال العالم على انتظار الرسالة ، وانفقت أحوال محمد
صلى الله عليه وسلم على ترشيحه لتلك الرسالة .
وكان من الممكن أن تتفق أحوال العالم وأحوال محمد ، ولا تتفق
معه الوسائل التى تؤدى بها رسالته على أحسن الوجوه .
كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول ، ثم لا يظهر الرسول .
وكان من الممكن أن يظهر الرسول فى البيت الصالح ، وفى البيئته
الصالحة ، ثم لا تنهيا له الصفات التى يتم بها أداء الرسالة .
ولكن الذى اتفق فى رسالة محمد صلى الله عليه وسلم قد كان أعجب
أعاجيب الاتفاق . وكان المعجزة التى تفوق المعجزات ، لأنها مع
ضخامتها وتعدد أجزائها ، وتوافق تلك الأجزاء جميعها مما يقبله العقل
قبولا سائغا بغير عنت ولا استكراه . . فكان محمد صلى الله عليه
- وآله وصحبه - وسلم مستكملا للصفات التى لا غنى عنها فى إنجاح
كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ . .
كانت له فصاحة اللسان واللغة ، وكانت له القدرة على تأليف القلوب
وجمع الثقة . . وكانت له قوة الإيمان بدعوته .
وكان فوق ذلك يتصف بالصبر والثبات على إنجاح هذه الدعوة ،
حتى آتت ثمارها بإذن ربها .

(١) الأحزاب : ٤٥

(٢) بتصرف . عبقرية محمد للعقاد : ص ٣٤

وإليك بعض التفصيل لما ذكر :

* فصاحته : صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أفصح العرب لساناً ، وأبينهم
حجة ، وأقوام دليلاً . يعلم لغة من بُعد منهم ومن قُرب ، ويخاطب
كل قبيلة بلسانها ، ويجرى مع كل طائفة في ميدان بيانها ..
فصاحته إلى المنتهى ، وبلاغته أذهلت أرباب النهى (العقول) ،
وجوامع كَلِمِهِ ماثورة ، وبدائع حكمه مشهورة ..
جمع من الكلام رونق الحضارة وجزالة البداوة ، لأن مدده
الوحي الذي لا يُدركه البصر ، ولا يُحيطون بشيء من علمه ..
كان صلى الله عليه وسلم حلو المنطق حسن الترتيل ، كلامه بَيِّنٌ
يُحفظه من جالس ، ويهمه كل من سمع ، كأنما هو دُرَر منظومة ،
لا فُضول فيه ولا تقصير ..

قالت عائشة رضي الله عنها :

(ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يَسْرُدُ كَسَرْدِكُمْ هذا ؛
واسكن كان يتكلم بكلام بَيِّنٍ فَضْلٌ ، يُحفظه من جالس إليه .)
وفي رواية أخرى : (كان رسول الله صلى الله عليه وسلم
يحدث حديثاً ، لو عدّه العادُّ لأحصاه ..)
ولهذا عجب أصحابه من فصاحة لسانه - صلى الله عليه وسلم -

وكال بيانه ، فقد قال له أبو بكر رضي الله عنه :

(لقد طُفْتُ في العرب ، وسمعت فصحاءهم ؛

فما سمعت أفصح منك .. فمن أدبك ؟)

قال رسول الله صلى الله عليه - وآله وصحبه - وسلم :
« أَذَّبَنِي رَبِّي ، فَأَحْسَنَ تَأْدِيبِي . »

وقال عمر رضي الله عنه :

(يا رسول الله ، مالك أفصحنا ، ولم تخرج من بين أظهرنا ١٩)

قال عليه - وآله وصحبه - الصلاة والسلام :

« كَانَتْ لُغَةُ إِسْمَاعِيلَ قَدْ دَرَسَتْ ..

فَجَاءَ بِهَا جِبْرِيلُ .. فَحَفِظْتُهَا »

وقال علي رضي الله عنه :

(ما سمعتُ كلمة غريبة من العرب ،

إلا وقد سمعتها من رسول الله ،

صلى الله عليه وسلم .)

وسمعه صلى الله عليه وسلم يقول :

« مَاتَ حَتَفَ أَنْفِهِ » . .

وما سمعتها من عربي قط .)

وقال القاضي عياض في الشفاء :

(ألقى الله عز وجل على كلامه المحبة وغشاه بالقبول ، وجمع له

بين المهابة والحلاوة . . . وهو مع استغنائه عن إعادته ، وقلة حاجة

السامع إلى مُعاودته ، لم تسقط له كلمة ، ولا زالت له قدم ،

ولا بارت له حجة (١) . .)

(١) راجع الشفاء . ج ١ ص ٥٧ ، الوفا بأحوال المصطفى :

ج ٢ ص ٤٥٦ ، محمد المثل الكامل : ص ١٥

* الْقُدْرَةُ عَلَى تَأْلِيفِ الْقُلُوبِ وَتَوْحِيدِ صَفِّ الْمُسْلِمِينَ :

كان رسول الله صلى الله عليه - وآله وصحبه - وسلم يكفُّ لسانه إلا فيما يعنيه ، ويؤلف بين أصحابه ولا يُنْفَرُهم ، ويكرم كريم كل قوم ، ويؤكِّيه عليهم ، ويتفقد أصحابه ويسأل الناس عما في الناس ، ويُحسِّنُ الحسن ويُقوِّيه ويُقَبِّحُ القبيح ويُوهِّنه (يضعفه) ، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يفعل مخافة أن يفعلوا أو يماؤا ..

لكل حال عنده عتاد (عدة) .. لا يقصر عن الحق ولا يتعداه ، الذين يُلَوِّنه من الناس خيارهم أفضاهم عنده : أهمهم نصيحة ، وأعظمهم عنده منزلة : أحسنهم مواساة ومؤازرة .

وكان صلى الله عليه - وآله وصحبه - وسلم لا يقوم ولا يجلس إلا على ذكر ، إذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهي به المجلس ، يُعطى كل جالسائه نصيبه ..

لا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه ..

من جالسه أو قاومه في حاجة ، صابره حتى يكون هو المنصرف .. ومن سأله حاجة لا يرده إلا بها أو بيمسور من القول ، قد وسع الناس بحلمه وعظمه وشفقته ورحمته ، فصار لهم أبا ، وصاروا في الحق عنده سواء ..

وكان صلى الله عليه - وآله وصحبه - وسلم دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب ، ليس بعتاب ولا قَدَّاح ، يتغافل عما لا يشتهى .

قد ترك نفسه صلى الله عليه وسلم من ثلاث : العراء (المجادلة) ، والإكثار (من الكلام) وما لا يعنيه . .

وترك الناس من ثلاث : كان لا يدمّ أحداً ولا يعينه ، ولا يطلب عَوْرَةَ أحد ، ولا يتكلم إلا فيما رجا نوابه ..

وإذا تكلم ، أطارق جلساؤه ، كأن على رؤوسهم الطير ..

فإذا سكت تكلموا .. لا يتنازعون عنده الحديث : من تكلم عنده ، أنصتوا له حتى يفرغ .. حديثهم عنده حديث أولهم ، يضحك فيما يضحكون منه ، ويتمجب بما يتمجبون منه ، قد صبر للعريب على الجفوة في منطقته ومسألته ، ولا يقطع على أحد حديثه (١) ..

قال تبارك وتعالى : ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ .

وَلَوْ كُنْتَ فَظًا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَأَنَّفَضُوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ ﴾ (٢)

قال عليّ رضي الله عنه :

(كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أجود الناس بداراً ، وأصدقهم

حجة ، وألينهم عريكة (سلس الخلق) وأكرمهم عشرة ..

من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه معرفة أحبه (٣))

وعن أسماء رضي الله عنها قالت : لما دخل رسول الله ، صلى الله

عليه وسلم مكة وأطمأن وجلس في المسجد ، أتاه أبو بكر بأبي قحافة .

فلما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال :

« يا أبا بكر : ألا تركت الشيخ ؟ أنا الذي أمشي إليه . »

قال : يا رسول الله . هو أحق أن يمشي إليك ، من أن تمشي إليه .

(١) بتصرف : الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي

ج ٢ : ص ٤٦٦ . (٢) آل عمران : ١٥٩

(٣) الوفا بأحوال المصطفى ج ٢ ص ٤٦٦

فأجلسه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ووضع يده على قلبه
ثم قال : « يا أبا قحافة . أسلمت تسلم »
قالت : فأسلم ، وشهد شهادة الحق (١) .
وقال قيس بن أبي حازم : أتى رجل النبي صلى الله عليه وسلم .
فلما قام بين يديه استقبلته رعدة (أصابه اضطراب) .
فقال له النبي صلى الله عليه - وآله وصحبه - وسلم :
« هَوِّنْ عَلَيْكَ ، فَإِنِّي لَسْتُ مَلِكًا .
لِنَّمَا أَنَا ابْنُ امْرَأَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ كَانَتْ تَأْكُلُ الْقَدِيدَ » (٢)
وعن أنس رضى الله عنه : أن امرأة كان في عقلها شيء ،
فقالت : يا رسول الله ، إن لى إليك حاجة .
قال صلى الله عليه وسلم : « يا أم فلان ، خُذِي فِي أَى
طَرِيقٍ شِئْتِ ، قَوْمِي فِيهِ حَتَّى أَقُومَ مَعَكَ . »
فخلا معها (وقف معها فى الطريق العام) رسول الله صلى الله
عليه وسلم يُناجيها (يتحدث معها) حتى قضت حاجتها (٣) .
قال ابن أبي أوفى : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يأنف
ولا يستكبر أن يمشى مع الأرملة والمسكين ، فيقضى له حاجته . (٤)
وقال ابن شهاب :
حدثنا سعيد بن المسيب أن صفوان بن أبي أمية قال :
والله لقد أعطاني (يقصد الرسول صلى الله عليه وسلم) ما أعطاني
وإنه لأبغض الخلق إلى . . فما زال يُعطينى حتى إنه لأحب الخلق إلى (٥) .

(١) حياة الصحابة ج ١ ص ٦٦

(٢) (٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥) الوفا بأحوال المصطفى ج ٢ ص ٤٣٧

ويروى أن أعرابياً جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم يطلب منه شيئاً .. فأعطاه .. ثم قال صلى الله عليه وسلم : « أحسنتُ إليك ؟ »
قال الأعرابي : لا ، ولا أجملت .

فغضب المسلمون وقاموا إليه ، فأشار إليهم النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قام ودخل المنزل وأرسل إلى الأعرابي وزاده شيئاً ، ثم قال له : « أحسنتُ إليك ؟ »

قال : نعم . فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا .

فقال صلى الله عليه وسلم : « إنك قلت ما قلت ، وفي نفس أصحابي من ذلك شيء .. فإن أحببت ، فقل بين أيديهم ما قلت بين يدي ، حتى يذهب ما في صدورهم عليك . »

قال : نعم .. فلما كان الغد أو العشي ، جاء ..

فقال صلى الله عليه وسلم : « إن هذا الأعرابي قال ما قال ، فزدناه . فزعم أنه رضى : أ كذلك ؟ » .

قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرًا .

فقال صلى الله عليه وسلم : « مَثَلِي وَمَثَلُ هَذَا ، مَثَلُ رَجُلٍ لَهُ نَاقَةٌ مُرَدَّتٌ عَلَيْهِ .. فَاتَّبَعَهَا النَّاسُ .. فَلَمْ يَزِيدُوهَا إِلَّا نَفُورًا .. فَناداهم صاحبها : خَلُّوا بَيْنِي وَبَيْنَ نَاقَتِي ، فَإِنِّي أُرْفِقُ بِهَا مِنْكُمْ وَأَعْلَمُ .. فَتَوَجَّهَ لَهَا بَيْنَ يَدَيْهَا ، فَأَخَذَ لَهَا مِنْ قُمامِ الْأَرْضِ ، فَرَدَّهَا حَتَّى جَاءَتْ وَاسْتَنَاحَتْ ، وَشَدَّتْ عَلَيْهَا رَحْلَهَا وَاسْتَوَى عَلَيْهَا . وَإِنِّي لَوْ تَرَكْتُكُمْ حَيْثُ قَالَ الرَّجُلُ مَا قَالَ ، فَقَتَلْتُمُوهُ ، دَخَلَ النَّارَ (١) . »

* حِرْصُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى إِسْلَامِ قَوْمِهِ ،
وَصَبْرُهُ عَلَى تَبْلِيغِ رِسَالَةِ رَبِّهِ :

وقال الله تبارك وتعالى :

﴿ فَلَمَّا لَكَ بِأَخِيحِ نَفْسِكَ عَلَى آثَارِهِمْ
إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ .

وقال تبارك وتعالى :

﴿ طَاهٍ ، مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى .
إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَى ^(١) ﴾ .

يقول الإمام ابن كثير في تفسير الآية الأولى :

هذه الآية تسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم في حُزْنِهِ عَلَى
المُشْرِكِينَ ، لتركهم الإيمان وبعدهم عنه ، كما قال تبارك وتعالى :

﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسْرَاتٍ ﴾ .

وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ ﴾ .

بأخيه : أى مُهْلِكِ نَفْسِكَ بِحُزْنِكَ عَلَيْهِمْ ، قال مجاهد : لا تأسف
عليهم ، بل أبلغهم رسالة الله . . فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضلَّ
فإنما يضلُّ عليها ، ولا تذهب نفسك عليهم حسرات ^(٢) .

وقال الإمام أبو السعود في تفسير الآية الثانية :

إنها تسليية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عما كان يعتريه من جهة
المُشْرِكِينَ مِنَ التَّعَبِ ! ..

(٢) الشفا : ج ٣ ص ٩٢

(١) طه : ١ ، ٢

فإن الشقاء شائع في هذا المعنى (معنى التعب) أى ما أنزلناه عليك لتتعب بالمخالفة في مكابدة الشدائد في مقاومة العُتاة ومُحاورة الطُغاة ، وفرط التأسف على كفرهم به ، والتحسر على أن يؤمنوا ، بل للتبليغ والتذكير ، وقد فعلت .. فلا عليك إن لم يؤمنوا بعد ذلك^(١).

لقد بعث الله رسولنا سيدنا محمداً صلى الله عليه وسلم من قوم ، عاش معهم أربعين عاماً قبل البعثة ، وعرفوا عنه كل شيء ، حتى شهدوا له بكرم الأخلاق ، وصدق الحديث ، والأمانة والوفاء وغيرها ، كما عرفوا أنه من أعلام نسبنا ، وأكرمهم حسبا . ولكنه حين دعاهم إلى دين لم يألفوه ، ومنهج في الحياة لم يجدوا عليه آباءهم ، وقفوا منه موقف المسكابر المعاند المستكبر . . . وحاولوا أن يغيروا رأى الناس في أخلاقه السكريمة ، فاتهموه بالسكنى والسحر وبالجنون . . . إلخ واعتدوا عليه كثيراً ، ولكنه - مع ذلك كله - كان يعفو ويصفح . . . ويحزن على كفرهم ، ويصبر على طول عنادهم وإيذائهم صبراً ، عزّ مثله في المرسلين أنفسهم !

وكان صلى الله عليه وسلم يأمر أصحابه أن يهاجر من شاء منهم إلى أرض غير مكة ، ليؤمنوا على أنفسهم ودينهم .. وفعلاً : هاجر عدد منهم إلى بلاد الحبشة أول الأمر ، ثم هاجروا إلى المدينة .. أما هو صلى الله عليه وسلم : فكان يتحمل كل ما يأتي من قومه من من إيذاء وعنت ، ثم ينطلق كأن شيئاً لم يحدث ، فيعرض نفسه على القبائل وعلى الأفراد والجماعات في موسم الحج وغيره . . .

وظل كذلك حتى أمره الله بالهجرة إلى المدينة ، بعد أن آمن
منها جماعة من الأنصار ، وفتحت أبوابها مرحبة بالدين الجديد .
وإليك أمثلة مما لقيه صلى الله عليه وسلم من قومه ، ومع ذلك
كان الحريص على إسلامهم ، الصابر على إيذائهم .

وصدق الله العظيم القائل :

﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ
مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ^(١) ﴾ .
عن طارق بن عبد الله المحاربي رضى الله تعالى عنه ، قال :
رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مرتين ، مرة بسوق
ذى المجاز ، وأنا فى ربيعة لى .. فرآه وعليه حلة حمراء ، وهو ينادى
بأعلى صوته :

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ ، فُؤُلُوا :

لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ - تُفْلِحُوا . »

ورجل يتبعه بالحجارة قد أدى كعبه وعرقوبه !! وهو يقول :
يا أيها الناس ، لا تطيعوه ، فإنه كذاب .. !!

قلت : من هذا ؟ قالوا : غلام من بنى عبد المطلب .

قلت : فمن هذا الذى يتبعه يرميه ؟

قالوا : عمه عبد العزى ، وهو : أبو لهب ^(٢) .

وعن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما ، قال :

مكث رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة عشر سنين ، يتبع
الناس فى منازلهم ، بمكاظ ومجنة ، وفى المواسم بمنى ، وهو يردد :

(١) التوبة : ١٢٨ (٢) الوفا بأحوال المصطفى : ج ١ ص ١٨٢

« مَنْ يُؤْوِيْنِي ؟ ١١ مَنْ يَنْصُرُنِي حَتَّى أَبْلُغَ رِسَالَةَ رَبِّي ؟ ١٢ »
حتى إن الرجل ليخرج من اليمن ، أو من مصر ، فيأتيه قومه ،
فيقولون : احذر علام قريش .. لا يفتنك (١) ..

وقال عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه .
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطوف بالبيت ، ويده في يد
أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، وفي الحُجَرِ ثلاثة نفر جلوس :
عقبة بن أبي معيط ، وأمّية بن خلف ، وأبو جهل عمرو بن هشام .
فمرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ..
فلما حاذاهم ، أسمعوه بعض ما يكره .

فعرفت ذلك في وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم . .
فدنوت منه ، حتى كان بيني وبين أبي بكر ؛ فأدحل أصابعه
في أصابعي ، حتى طُفْنَا جميعاً .. فلما حاذاهم ، قال أبو جهل :
والله لا نصلحك ، ما بلّ بجرّ صوفة .. (دلالة على عدم صلحتهم
له أبدا ١١) وأنت تنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا ..

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا ذلك . »
ثم مضى عنهم ، فصنعوا به في الشوط الثالث مثل ذلك ،
حتى إذا كان الشوط الرابع ، نهضوا ..
فوثب أبو جهل ، يريد أن يأخذ بمجمع ثوبه ..

فدفعته في صدره ، فوقع ..
ودفع أبو بكر أمّية بن خلف ..
ودفع رسول الله صلى الله عليه وسلم عقبة بن أبي معيط ..

ثم انفرجوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم (أى انكشفوا عنه وتركوه) ولهو واقف ، ثم قال لهم :

« أَمَّا وَاللَّهِ لَا تَنْتَهِنَنَّ ، حَتَّى يَحُلَّ عِقَابُهُ عَاجِلًا . »

قال عثمان رضي الله عنه :

فوالله ما منهم رجل إلا وقد أخذته الخوف ، وجعل يرتعد .

فجعل رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

« يَبْسُ الْقَوْمُ أَنْتُمْ لِنَبِيِّكُمْ ! »

ثم انصرف إلى بيته ، وتبعناه ، حتى انتهى إلى باب بيته ، فوقف على السدة ، ثم أقبل علينا بوجهه ، ثم قال :

« أَبْشِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ - عَزَّ وَجَلَّ - مُظْهِرُ دِينِهِ ،

وَمُتَمِّمُ كَلِمَتِهِ ، وَنَاصِرُ نَبِيِّهِ^(١) . »

أخرج ابن جرير عن ابن عباس : أن عتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا سفيان وغيرهم اجتمعوا بعد غروب الشمس عند ظهر الكعبة ، فقال بعضهم لبعض : ابعثوا إلى محمد ، فكلّموه ، وخاصموه ، حتى تُعذّروا فيه .

فبعثوا إليه : أن أشراف قومك قد اجتمعوا لك ليكلّموك .. فجاءهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سريعاً ، وهو يظن أنه قد بدا لهم في أمره بداء .. وكان عليهم حريصاً ، يحب رشدهم ، ويعزّ عليه عنّتهم (أى مشقتهم وهلاكهم وفسادهم) حتى جلس إليهم ..

فقالوا : يا محمد ! إنا قد بعثنا إليك ، لنعذر فيك . وإنا والله ما نعلم رجلاً من العرب أدخل على قومه ما أدخلت على قومك : لقد شتمت الآباء ، وعيبت الدين ، وسفّهت الأعلام ، وشتمت الآلهة ، وفترت الجماعة ؛ فما بقي من قبيح إلا وقد جئته فيما بيننا وبينك ..

فإن كنت إنما جئت بهذا الحديث تطلب به مالا ، جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا . وإن كنت إنما تطلب الشرف فينا ، سودناك علينا . وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذي يأتيك بما يأتيك رثيلاً تراه قد غلب عليك (وكانوا يسمون التابع من الجن الرثي) فربما كان ذلك : بذلنا أموالنا في طلب الطب ، حتى نبرئك منه أو نعذر فيك .. فقال رسول الله صلى الله عليه - وآله وصحبه - وسلم :

« ما بي ما تقولون .. »

ما جئْتُكُمْ بما جئْتُكُمْ بِهِ أَطْلُبُ أَمْوَالَكُمْ ،
ولا الشَّرَفَ فِيكُمْ ، ولا الْمُلْكَ عَلَيْكُمْ .
وَلَكِنَّ اللَّهَ بَعَثَنِي إِلَيْكُمْ رَسُولًا ،
وَأَنْزَلَ عَلَيَّ كِتَابًا ، وَأَمَرَنِي أَنْ أَكُونَ لَكُمْ بَشِيرًا وَنَذِيرًا .
فَقَبَلْتُكُمْ رَسُولَاتِ رَبِّي ، وَنَصَحْتُ لَكُمْ .
فَإِنْ تَقَبَّلُوا مِنِّي مَا جئْتُكُمْ بِهِ فَهُوَ حَظُّكُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ .
وَلِإِنْ تَرُدُّوهُ عَلَيَّ ، أَصْبِرْ حَتَّى يَخُفَّكُمْ اللَّهُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ^(١) .

وقال ابن إسحاق :

لما هلك أبو طالب ، نالت فريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم من الأذى ما لم تكن تناله منه في حياة عمه أبي طالب .
فمخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومعه زيد بن حارثة إلى الطائف ، يلتمس النصرة من ثقيف ، والمنعة بهم من قومه .
ورجاء أن يقبلوا منه ما جاءهم به من الله عز وجل ..

فمخرج إليهم وحده .. فعمد إلى نفر منهم .. فجلس إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدعاهم إلى الله ، وكلهم بما جاءهم له من نصرة الإسلام ، والقيام معه على من خالفه من قومه ..

فقال له أحدهم وهو يبرط (يمزق) ثياب الكعبة :

إن كان الله أرسلك !

وقال الآخر : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك !

وقال الثالث : والله لا أكلمك أبدا .. لكن كنت رسولا من الله كما تقول ، لأنك أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام !
ولكن كنت تكذب على الله ، ما ينبغي لي أن أكلمك !

فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه -
وسلم من عندهم ، وقد يئس من خير ثقيف ، وقال لهم :
« إِذْ فَعَلْتُمْ مَا فَعَلْتُمْ ، فَاسْكُتُوا عَنِّي ! »

فلم يفعلوا .. بل أغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونته ويصيحون به ،
حتى اجتمع عليه الناس ، وأجأوه إلى حائط لعتة وشيبة :
ابنى ربيعة ..

فلما حدث ما حدث ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :
 « اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي وَفِلَّةَ حِيلَتِي
 وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ ، يَا أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ ! ..
 أَنْتَ رَبُّ الْمُسْتَضْعِفِينَ ! .. وَأَنْتَ رَبِّي ! ..
 إِلَيَّ مَنْ تَكِلْنِي : إِلَيَّ بَعِيدٍ يَتَجَهَّمُنِي ^١
 أَمْ إِلَيَّ عَدُوٌّ مَلَكَتْهُ أَمْرِي ! ..
 إِنْ لَمْ يَكُنْ بِكَ عَلَيَّ غَضَبٌ فَلَا أُبَالِي ،
 وَلَكِنْ عَافِيَتُكَ هِيَ أَوْسَعُ لِي ،
 أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ ،
 وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ،
 مِنْ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ ، أَوْ يَحِلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ ! ..
 لَكَ الْعُنْبَى حَتَّى تَرْضَى .. وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ ^(١) . »
 روى البخارى بسنده المتصل إلى عائشة رضى الله عنها ،
 أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم :
 (هل أتى عليك يوم ، كان أشد عليك من يوم أحد ؟)
 فقال صلى الله تعالى وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم :
 « لقد لقيت من قومك ! ..
 وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة : إذ عرضت نفسى على
 ابن عبد ياليل ، فلم يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ ! .. فانطلقت على وجهى
 وأنا مهموم ، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب (مكان) .. »

فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلمتني .
فنظرت ، فإذا فيها جبريل . . فناداني ، فقال :
(إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ ، وَمَا رَدُّوهُ عَلَيْكَ !..
وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ ، لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ)
فناداني مَلَكُ الْجِبَالِ ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ، فقال :
(يَا مُحَمَّدُ ، ذَلِكَ لَكَ :

إِنْ شِئْتَ أَطْبِقُ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ^(١) .)
فقال النبي صلى الله تعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم :
« بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ :
مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ ، وَلَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا^(٢) . »
ولما منعت قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم من دخول مكة
زمن الحديبية ، قال صلوات الله عليه - وآله وصحبه - وسلم :
« يَا وَيْحَ قريش ! لقد أكلتهم الحربُ .
فماذا عليهم لو خَلُّوا بيني وبين سائر العرب ؟
فإن أصابوني ، كان الذي أرادوا . .
وإن أظهرني الله عليهم ، دخلوا في الإسلام وافرين .
وإن لم يعجلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟
فوالله لا أزال أجاهدُهم على الذي بعثنى الله ،
حتى يُظهرني الله أو تنفردَ هذه السالفة^(٣) . . »

(١) الجليلين (٢) الروض الأنف : ج ١ ص ٢٦٢

(٣) يعني : أو تقطع رقبتى - حياة الصحابة : ج ١ ص ٣٨

* * *

* جِهَادُهُ صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

فِي سَبِيلِ عَقِيدَتِهِ :

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق ، ليفتح به قلوباً غُلُفًا ،
وأعينًا عميًا ، وآدانا صمًا ، وجعله الله رحمة للعالمين ..
فكان أول من آمن به أهل بيته الأذنون :
روجه التي كانت أعلم الناس بحاله ..
ورببيه ابن عمه عليّ ، رضى الله عنه ..
وعتيقه زيد بن حارثة ، رضى الله عنه ..
وأول من بلغته دعـوتـه خارج بيته ، فعقلها وفقه سرها ،
وأدرك حقيقتها وفضلها - من أول وهلة - فقبلها بلا تَلَبُّث :
أبو بكر الصديق ، رضى الله عنه ..

وما زال جمهور قومه صلى الله عليه وسلم يُؤذونه ويصدّون الناس
عنه ويفتنون من آمن به - وأكثـر من آمن به من الضعفاء - بأنواع
التعذيب ، حتى اضطروهم إلى الهجرة وترك ديارهم ووطنهم ..
ثم هاجر ، هو صلى الله عليه وسلم بعد ظهور دعوة الإسلام
بعشر سنين (١) ..

ثم صار هؤلاء المشركون يتبعونهم إلى مهاجرهم : يقاتلونهم فيه ..
فأذن الله لهم في قتالهم ، بقوله تبارك وتعالى :

(١) لأن الدعوة بدأ ظهورها بعد ثلاث سنوات من المبعث ،
فنكون مدة إقامته صلى الله عليه وسلم في مكة ثلاث عشرة سنة .

﴿ أذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا ، وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ، الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا : رَبَّنَا اللَّهُ (١) ۝ ﴾ .

وبين الله حكمة الإذن بالقتال : وأنه شرع لأهلهم مظلومون لا ظالمون . . . وأنه لولا هذا الدفاع ، لغلب أهل الشرك وياطل ، والخرافات والمنكرات ، على أهل الإيمان والحق ، والعدل وتنضائل ، وهدموا بيوت الله تعالى ، لإيقاد هياكل الأصنام ، والأوثان (٢) .
يقول الله تبارك وتعالى :

﴿ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفُتَّتْ صَوَامِعُ وَيَسْعُ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٣) ۝ ﴾ .

وشدد الله سبحانه في الأمر بالجهاد ، بعد أن كان الأمر قبل ذلك بالعبر والتحمل ، لأن الجهاد إنما شرع لحماية الدين والمستضعفين وللوطن الإسلامي الجديد : المدينة وما يتبعها . .

ولذلك قال تبارك وتعالى مخاطباً نبيه صلى الله عليه وسلم :
﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٤) ۝ ﴾ .

(١) سورة الحج : ٣٩ ، ٤٠ (٢) المنار : ج ١٠ ص ٧٧

(٣) سورة الحج : ٤٠ (٤) سورة الأنفال : ٦٥

وقال الله تبارك وتعالى :

﴿ فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ،
وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ ، عَسَى اللَّهُ أَنْ يَكُفَّ بَأْسَ
الَّذِينَ كَفَرُوا ، وَاللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنَكُّلًا ﴾ (١) .

قال صاحب المنار : ويؤخذ من هذه الآية أن الله تعالى كاف
نبيه صلى الله عليه وسلم أن يقاتل الكافرين ، فالذين قاوموا دعوته
بقوتهم وبأسهم ، وإن كان صلى الله عليه وسلم وحده ! .
وذلك يدل على أنه أعطاه من الشجاعة ما لم يُعطِ أحدا
من العالمين ! .

وسيرته صلى الله عليه وسلم تدل على ذلك :

فهو قد تصدى لمقاومة الناس كلهم بدعوته إلى ترك ما هم عليه
من الضلال ، واندفاع النور الذي أنزل معه ، ولما قاتلوه قاتلهم ،
وقد انهزم أصحابه عنه مرة ، فبقي ثابتاً لا يتزلزل (٢) . .

ولقد كانت حياته صلى الله عليه وسلم كلها جهاداً في سبيل الله ،
فجهاد بالكلمة كهار مكة قبل الهجرة ، ومنافق المدينة بعسدها ،
وقاتل بالسيف أعداء الحق والنور ، والعدل والخير ، الذين افتروا عليه
وحاولوا القضاء على دعوته وعلى من آمن بها ، ملتزمًا في ذلك النهج
الذي رسمه الله سبحانه وتعالى له بقوله :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ ،
وَاعْلِظْ عَلَيْهِمْ ، وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ (٣) .

(١) سورة النساء : ٨٤ (٢) المنار : ج ٥ ص ٣٠٥

(٣) سورة التوبة : ٧٣

وقصى صلى الله عليه وسلم فترة المدينة كلها . إما مرابطاً وراء سرية ، وإما قائداً لغزوة ، حتى دفع الساطل بالحق ، فكلمة الله تبارك هي العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى .. وتحقق قوله تبارك وتعالى :

﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ ،
لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ ، وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ^(١) ﴾ .

وإنا لتأخذنا الدهشة إذا عرفنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالرغم من أن إقامته بالمدينة لم تزد على عشر سنوات ، فإنه مع ذلك خرج بنفسه مجاهداً في سبع وعشرين غزوة ، وأرسل أصحابه مجاهدين ومقاتلين في سبيل الله ثمانياً وثلاثين مرة . . .

وبذلك ندرك أنه صلى الله عليه وسلم قصى كل حياة البعثة مجاهداً ومقاتلاً ، حتى نزل عليه قوله تبارك وتعالى :

﴿ .. الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتَمَمْتُ عَلَيْكُمْ
نِعْمَتِي ، وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا ^(٢) ﴾ .

(١) سورة التوبة : ٣٣ .. ومعنى الإظهار هنا : الغلبة والقوة

(٢) سورة المائدة : ٣

* * *

* مُعْجَزَاتُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

مقدمة :

أُيِّدَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى نَبِيهِ بِالْآيَاتِ الْبَيِّنَاتِ ، وَالْمُعْجَزَاتِ الْبَاهِرَاتِ ،
لِتَكُونَ شَاهِدَةً عَلَى ثُبُوتِ نُبُوَّتِهِ ، وَصَدَقَ رِسَالَتُهُ ، إِرْثَامًا لِلْمَعَانِدِينَ
الْمُكَابِرِينَ بِالْحُجَجِ الْقَاطِعَةِ ، وَالْبِرَاهِينِ السَّاطِعَةِ ، وَتَثْبِيثًا لِقُلُوبِ أَهْلِ مِلَّتِهِ ،
الْمُتَّبِعِينَ لِدَعْوَتِهِ وَالْمُصَدِّقِينَ لِنُبُوَّتِهِ ، عَلَى مَحَبَّتِهِمْ لَهُ ، وَتَصَدِيقِهِمْ بِهِ ،
فِيَزِدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ ، وَإِعْلَامًا لِجَمِيعِ النَّاسِ عَلَى تَعْظِيمِ قُدْرِهِ ،
وَرَفْعَةِ شَأْنِهِ ، وَسَمُو مَكَانَتِهِ عِنْدَ رَبِّ الْعَالَمِينَ .

وَمَعَ أَنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَكْثَرِ الرُّسُلِ مُعْجِزَةً ،
وَأَبْهَرَهُمْ آيَةً ، وَأَظْهَرَهُمْ بَرَهَانًا ، فَإِنَّهُ إِذَا تَأَمَّلَ الْمُتَأَمِّلُ فِي سِيرَتِهِ
الْمُعْطَرَةِ ، فَوَجَدَ بَرَاعَةً عِلْمِيَّةً ، وَرَجَاحَةً عَقْلِيَّةً وَحِلْمَةً ، وَعَظَمَةً كَمَالَهُ ،
وَجَمِيعَ خِصَالِهِ ، وَصَوَابَ فِعَالِهِ ، وَشَاهِدَ سَمُوءَهُ فِي جَمِيعِ أَحْوَالِهِ :
لَمْ يَرْتَبْ لِحَفْظَةِ وَاحِدَةٍ فِي صِحَّةِ نُبُوَّتِهِ ، وَصَدَقَ دَعْوَتُهُ ..
وَقَدْ كَفَى هَذَا غَيْرَ وَاحِدٍ فِي إِسْلَامِهِ وَإِيمَانِهِ .

وَقَبْلَ أَنْ نَتَحَدَّثَ عَنْ مُعْجَزَاتِهِ عَلَيْهِ - وَآلِهِ وَصَحْبِهِ - الصَّلَاةَ
وَالسَّلَامَ ، يَحْسُنُ بِنَا أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ الْمُعْجِزَةَ هِيَ : أَمْرٌ خَارِقٌ لِلْعَادَةِ ،
مَقْرُونٌ بِالتَّحْدِي ، سَالِمٌ مِنَ الْمَعَارِضَةِ .

وَهِيَ . إِمَّا حِسِّيَّةٌ وَإِمَّا عَقْلِيَّةٌ ، وَأَكْثَرُ مُعْجَزَاتِ أَنْبِيََاءِ بَنِي
إِسْرَائِيلَ كَانَتْ حِسِّيَّةً ، لِبِلَادَتِهِمْ وَقِلَّةِ بَصِيرَتِهِمْ .. وَأَكْثَرُ مُعْجَزَاتِ
هَذِهِ الْأُمَّةِ عَقْلِيَّةٌ ، لِقُرْطِ ذَكَائِهِمْ ، وَكَمَالِ أَفْهَامِهِمْ ، وَلِأَنَّ هَذِهِ
الشَّرِيعَةَ لَمَّا كَانَتْ بَاقِيَةً عَلَى صَعَمَاتِ الدَّهْرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ، خُصِّتْ
بِالْمُعْجِزَةِ الْعَقْلِيَّةِ ، لِيَرَاهَا ذَوُو الْبَصَائِرِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ .

والمعجزات التي ظهرت على يد بينا صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ، منها ما نُقل إلينا متواتراً ، وعلمناه قطعاً كالقرآن الكريم ، فلا خلاف ولا مريبة في مجيء النبي عليه - وآله وصحبه - الصلاة والسلام به ، وظهوره من قبله ، واستدلاله بحججه ، وإن أنكر هذا معاند أو جاحد ، فهو كإنكاره وجود عهد عليه الصلاة والسلام في الدنيا .

ومنها ما لم يبلغ درجة الضرورة والقطع ، وهذا النوع الأخير منه ما هو مشتهر منتشر ، رواه العدد الكثير ، وشاع الخبر به عند المحدثين والرواة ، ونقلته السِّيَر والأخبار ، كنع الماء من بين أصابعه الشريفة .

ومنه ما رواه العدد اليسير ولم يشتهر اشتهار غيره ، لكنه إذا جمع إلى مثله ، اتفقا في المعنى واحتمعا على الإتيان بالمعجزا . . .
ولسكن أكثر المعجزات المأثورة عنه عليه - وآله وصحبه - الصلاة والسلام معلومة بالقطع^(١) . وإليك بعضاً منها :

(١) من الشفا : ج ١ ، للقاضي عياض : ص ٢١٧ بتصرف .

١ - الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ ..!

وهو أشهر معجراته عليه - وآله وصحبه - الصلاة والسلام ،
وأسمائها وألقابها وأقوامها في الإعجاز على الإطلاق ..! جاء فريد الدهر
في فصاحة ألفاظه ، وبلاغة أسلوبه ، وجلال ألفظه ، وروعة معناه !
واحتوى كثيرًا من الأسرار الإلهية الغامضة ، التي لم يكشف العلم
- حتى القرن العشرين - إلا عن نزر يسير منها ! .

وأحر عن الأمم السابقة ، وما حدث لهم في حياتهم ..!
وأنبأ عن وقائع بطهر الغيب لم تلبث أن جاءت كما أخبر به ،
كما احتوى على التشريعات العادلة التي ربيعت بها سعادة الدنيا
وفوز الآخرة ..!

والواقع أن وجوه إعجاز القرآن الكريم أكثر من أن تُحصى
وأعظم من أن يحيط بها جهد بشر ، كائنًا من كان ..!

واقصد تحدى النبي صلى الله عليه وسلم العرب به ، وهم أصحاب
البلاغة والفصاحة وقرسائها ، أن يأتوا بمثل القرآن ، فمجزوا !

فمجداهم أن يأتوا بمثل عشر سور منه ، فمجزوا ..!

فمجداهم أن يأتوا بمثل سورة واحدة منه ، فمجزوا ..!

وما أتوا من ذلك بمقال ، بل صبروا على الجلال والقتل ، وتعجزوا
كلمات الصغار والذل - وكانوا من شموخ الأنف بحيث لا يؤثر
ذلك اختيارًا ولا يرضونه إلا اضطرارًا - وما منهم إلا من جهد جهده
واستنفد ما عنده في إحياء ظهوره وإطفاء نوره ؛ فما جاءوا من ذلك
بشيء ، مع طول الأمد ، وكثرة العدد ، وتظاهر الوالد وما ولد ! !

وصدق الله العظيم ، القائل في محكم تنزيله :
﴿ قُلْ لِّئِنْ أَجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ ،
عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ،
وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ^(١) ﴾ .

والقرآن الكريم هو المعجزة الوحيدة الباقية من سائر معجزات
الأنبياء والرسل .

وسيظل كذلك إلى يوم أن يرت الله الأرض ومن عليها .

قال ابن الجوزي : إن معجزات الأنبياء ذهبت بموتهم . .

ولو قال مُلحد اليوم : أى دليل على صدق محمد وموسى ؟

فقل له : محمد شق له القمر ، وموسى شق له البحر .

لقال : هذا محال .

فجعل الله هذا القرآن معجزاً لمحمد صلى الله عليه وسلم ، لبقى
أبداً ، ليظهر دليل صدقه بعد وفاته ، وجعله دليلاً على صدق
الأنبياء ، إذ هو مُصَدِّقٌ لهم ونخبر بحالهم ^(٢) . .

ولم تكن معجزة القرآن - رغم عظمتها - هى المعجزة الوحيدة
لنبيينا صلى الله عليه وسلم ، بل كانت له معجزات حسية كثيرة ،
لا بد لنا من الوقوف على بعضها :

(١) سورة الإسراء : ٨٨

(٢) الوفا بأحوال المصطفى : ج ١ ص ٢٧١

٢ - حَيْثُ الْجَذْعُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ

تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ... :

قال جابر بن عبد الله الأنصاري ، رضي الله عنه :

كان المسجد مستقوفاً على جدوع نخل ..

فكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب يقوم إلى جذع منها .

فلما صُنع له المنبر ، سمعنا لذلك الجذع صوتاً كه صوت العشار^(١) .

وفي رواية أنس :

حَتَّى أَرْتَجَّ الْمَسْجِدَ بِخَوَارِهِ .

وفي رواية سهل :

وكثر بكاء الناس لما رأوا ما به ، حتى جاء النبي صلى الله

عليه وسلم ، فوضع يده عليه حتى سكت .

راد غير جابر :

فقال النبي عليه - وآله وصحبه - الصلاة والسلام :

« إِنَّ هَذَا بَكَى لِمَا فُقِدَ مِنَ الذِّكْرِ . »

وزاد غيره :

« وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ : لَوْ لَمْ أَلْتَزِمَهُ ،

لَمْ يَنْزَلْ هَكَذَا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ . »

نحزنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(١) العشار ، بكسر العين : جمع عُشراء على فقهاء ، وهي الناقة

التي أتى عليها من وقت الحمل عشرة أشهر .

وفي حديث بريدة : فقال النبي عليه الصلاة والسلام للجنذع :

« إِن شِئْتَ أَرُدْكَ لِلْحَائِطِ (١) الَّذِي كُنْتَ فِيهِ .

تَنْبِئُكَ لَكَ عُرْوُوكَ ، وَيَكْمُلُ خَلْقَكَ ،

وَيَجِدُكَ لَكَ خُوصٌ وَثَمَرٌ !..

وَأِنْ شِئْتُمْ أُغْرِسْكُمْ فِي الْجَنَّةِ ،

فَيَأْكُلُ أَوْلِيَاءُ اللَّهِ مِنْ ثَمَرِهِ ۖ

ثم أوصني له النبي صلى الله عليه وسلم ، يستمع ما يقول ..

فقال [الجذع] :

(بَلْ تَعْرِسُني فِي الْجَنَّةِ ، فَيَأْكُلُ مِنِّي أَوْلِيَاءُ اللَّهِ ،

وَأَكُونُ فِي مَكَانٍ لَا أَلْبِي فِيهِ .)

فسدہ من یابہ !..

ثم قال النبي عليه الصلاة والسلام : « قَدْ فَعَلْتُ . »

وقال عليه - وآله وصحبه - الصلاة والسلام :

« اِخْتَارَ دَارَ الْبَقَاءِ ، عَلَى دَارِ الْفَنَاءِ (۲) . »

(رواه الترمذی بطارق مختلفة ، وقال : حسن صحيح .

ورواه الإمام أحمد . والبخاري ومسلم ، وقال الزرقاني في المواهب : ج ٥

ص ۱۳۳ : إنا حديث متواتر تواتراً يفيد القطع .

٣ — انقياد الشجر له صلى الله تبارك وتعالى
عليه - وآله وصحبه - وسلم

عن جابر رضى الله عنه ، قال : سيرنا مع رسول الله صلى الله
عليه وسلم ، حتى نزلنا وادياً أفيحاً (١) . .

فذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقضى حاجته . .
فاتبعته بإداة (٢) من ماء ، فنظر الرسول عليه الصلاة والسلام ،
فلم ير شيئاً يستتر به ، فإذا شجرتان بشاطئ الوادى ، فانطلق الرسول
صلى الله عليه وسلم إلى إحداهما ، فأخذ بغصن من أغصانها ، فقال :
« إِنْقَادِي عَلَىِّ يَا ذَنْ لِّلَّهِ . »

فانقادت معه كالبعير المحشوش (٣) الذى يُصانع قائده ، حتى أتى
الشجرة الأخرى ، فأخذ بغصن من أغصانها ، وقال :
« إِنْقَادِي عَلَىِّ يَا ذَنْ لِّلَّهِ . »

فانقادت معه كذلك ، حتى إذا كان بالمنتصف مما بينهما ،
لَأَمَّ (٤) بينهما ، فقال : « التَّيَّمَا يَا ذَنْ لِّلَّهِ . » فالتأمتا ! .
قال جابر : فخرجت أخصر (٥) ، مخافة أن يحسن رسول الله
صلى الله عليه وسلم بقربى ، فيلتعد . .

(١) أفيح : واسع . (٢) إداة ، بالسكسر : المطهرة .

(٣) البعير المحشوش : المستحش من النوق التى دقت أوظفتها

من عظمها وكثرة شحمها ، وقد استحشها الشحم وأحشها .

(٤) لَأَمَّ : أوصل .

(٥) الأخصر : (بضم الحاء) ارتفاع فى العدو .

فجلست أحدث نفسي ، فحانت مني لمة : فإذا أنا برسول الله صلى الله عليه وسلم مقبلا ، وإذا الشحرتان قد افتترقتا ، فقامت كل واحدة منهما على ساق ١١ فرأيت الرسول عليه الصلاة والسلام وقف وقفة ، فقال برأسه ، هكذا (١) . .

ثم أقبل صلى الله عليه وسلم ، فلما انتهى إلى ، قال :
« يا جابر : هل رأيت مقامي ؟ »
قلت : نعم يا رسول الله (٢) .

٤ — إنكشاف الغيب له عليه الصلاة والسلام !
عن عتبة بن عامر رضى الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج يوما ، فصلى على أهل أحد صلاته على الميت ..
ثم انصرف إلى المنبر فقال :

« إِنِّي قَرِطٌ^(٣) لَكُمْ ، وَأَنَا شَهِيدٌ عَلَيْكُمْ ،
وإِنِّي وَاللَّهِ لَا أَنْظُرُ إِلَى حَوْضِي الْآنَ ..
وإِنِّي قَدْ أُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ خَزَائِنِ الْأَرْضِ
— أَوْ — مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ —

وإِنِّي وَاللَّهِ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تُشْرِكُوا بَعْدِي ،
وَلَسَكُنْ أَخَافُ عَلَيْكُمْ أَنْ تَتَنَافَسُوا فِيهَا^(٤) . »

(١) قال برأسه : أى أشار برأسه إلى كل من الشحرتين .

(٢) رواه مسلم : التاج ج ٣ ص ٣٠١

(٣) أى سابقكم إلى الآخرة .

(٤) رواه الشيخان . التاج ج ٣ ص ٣٠٦

ففي هذا الحديث الشريف ، نحدد أن الرسول عليه - وآله وصحبه -
الصلاة والسلام قد انكشف له العيب في أمور :
أولها : أنه صلى الله عليه وسلم أجبر أن أمته ستملك خزائن
الأرض وحيراتها ..

وقد حدث ذلك ١ ..

ثانيهما : أنه صلى الله عليه وسلم حاف على أمته من التنافس
في الدنيا ، والتضارب عليها ..

وقد حدث ذلك ١ .

ثالثها : أنه رأى حوضه عليه الصلاة والسلام رؤية بصرية ١ .

وعن أسامة رضى الله عنه ، قال :

أشرف النبي صلى الله عليه وسلم على أطعم^(١) من الآطام ، فقال :

« هَلْ تَرَوْنَ مَا أَرَى ؟ »

لَمَّا أَرَى الْفِتْنَ تَقَعُ

خِلَالَ بُيُوتِكُمْ مَوَافِعَ الْقَطْرِ^(٢) .. ١ «

ففي هذا الحديث انكشف له الغيب في وقوع الفتن بالمسلمين ،
وكذلك كان ، فقد نمت الفتنة بعده كل بيت من بيوت المسلمين ،
وكان أولها : قتل عمر بن الخطاب رضى الله عنه .

(١) الأطعم ، ضممتين : القصر ، وكل حصن مبنى بحجارة ،
وكل بيت مربع مسطح .

(٢) رواه الشيخان : التاج : ج ٣ ص ٣٠٧

٥ - سُرْعَةُ إِبْجَابَةِ دُعَائِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ !..

عن أنس رضي الله عنه ، قال :

أصاب المدينة قحط ^(١) على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،
فبينما هو يخطب يوم الجمعة ، إذ قام رجل فقال : يا رسول الله ،
هلكت الكراع ^(٢) هلكت الشاة !! فادع الله أن يسقينا .

فمدّ النبي عليه الصلاة والسلام يديه ، فدعا

قال أنس ، رضي الله عنه :

وإن السماء كمثل الزحاجة ، فهاجت ريح أنشأت سحاباً ،
ثم اجتمع ، ثم أرسلت السماء عزاليها ^(٣) ، فخرجنا نخوض الماء ،
حتى أتينا منازلنا ، فلم تزل تمطر إلى الجمعة الأخرى !

فقام إليه ذلك الرجل أو غيره ، فقال :

يا رسول الله ، تهدمت البيوت ، فادع الله أن يهبسه

فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم قال :

« حَوَالَيْنَا ، وَلَا عَلَيْنَا . »

فنظرت إلى السماء تصدّع ^(٤) حول المدينة ، كأنه إكليل ^(٥) .

(١) قحط : جَدْب . (٢) الكراع ، بالضم : الخيل .

(٣) عزاليها : جمع عزلاء ، وهي هم القرية الأسفل .

والمراد : نزل الماء كأفواه القرب .

(٤) تصدّع بتشديد الدال ، والمراد : تفرقة السحاب .

(٥) المراد أنه صار حول المدينة كأنه عصاة تزينها -

رواه الخمسة إلا الترمذي - التاج . ج ٣ ص ٢٢

٦ — تَسْبِيحُ الطَّعَامِ بَيْنَ يَدَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ..

عن عبد الله ، رضى الله عنه قال :
 كنا نعدّ الآيات بركة ، وأنتم تعدّونها تخويفاً .
 كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر ، فقلّ الماء .
 فقال صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم :
 « اَطْلُبُوا فَضْلَةً مِنْ مَاءٍ ^(١) . »

فجاءوا بإناء فيه ماء قليل ..

فأدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يده في الإناء ، ثم قال :
 « حَيَّ ^(٢) عَلَى الطَّهَّورِ الْمُبَارَكِ ، وَالْبَرَكَةُ مِنَ اللَّهِ . »

فلقد رأيت الماء ينبع من بين أصابعه الشريفة ..
 ولقد كنا نسمع تسبيح الطعام ، وهو يأكل ^(٣) ..

٧ — تَكْثِيرُ الْمَاءِ بِيَرْكَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ..

عن البراء رضى الله عنه ، قال :

كنا يوم الحديبية أربع عشرة مائة (والحديبية بئر) فنزحناها
 حتى لم نترك فيها قطرة ، فجلس النبي صلى الله عليه وسلم على شفير ^(٤)
 البئر ، فدعا بماء ، فمضض ، ثم مَجَّه في الثَّر ، فمكثنا غير بعيد ،
 ثم استقينا حتى روينا وروت ، أو - صدرت - ركائبنا ^(٥) .

(١) فضلة : بقية . (٢) حى على الطهور : أقبلوا عليه .

(٣) رواه البخارى - التاج : ج ٣ ص ٢٩٩

(٤) شفير : حافة . (٥) التاج : ج ٣ ص ٢٩٣

٨ - فِي شَكْوَى الْبَهَائِمِ إِلَيْهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ..

عن عبد الله بن جعفر ، رضى الله عنه ، قال :
دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوماً حائطاً من حيطان
الأنصار (بستان) ، وإذا جمل ، فلما رأى الحمل الرسول عليه
الصلاة والسلام : حَنَّ وذرفت عيناه .

فمسح الرسول عليه الصلاة والسلام سَرَاتَهُ وَذِفْرِيَهُ (١) . فسكن ..

فقال صلى الله عليه وسلم : « مَنْ صَاحَبُ الْجَمَلِ ؟ »

فجاء فتى من الأنصار ، فقال : هو لى يارسول الله .

فقال عليه - وآله وصحبه - الصلاة والسلام :

« أَلَا تَتَّبِعِي اللَّهَ فِي هَذِهِ الْبَهِيمَةِ ،

الَّتِي مَلَكَكَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ؟

إِنَّهُ شَكَى إِلَيَّ أَنَّكَ تُجِئُهُ وَتُدْثِبُهُ (٢) . »

٩ - تَبِعُ الْمَاءَ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ الشَّرِيفَةِ ..

عن جابر رضى الله عنه قال : عطش الناس يوم الحديبية ، والنبي
عليه الصلاة والسلام بين يديه ركوة (٣) ، فتوضأ ، فجهش (٤) الناس نفوسهم ..

(١) السراة : أعلى كل شئ . والذفران : مشى ذفر ، وهو :

ما من المقد إلى نصف القذال ، أو العظم الشاخص خلف الأذن .

(٢) تدثبه : تتبعه - أخرجه مسلم - الوفا : ج ١ ص ٣٠١

(٣) الركوة : إناء صغير من جلد يشرب فيه .

(٤) جهش الناس : أى أسرعوا متبئين لأخذه .

فقال صلى الله عليه وسلم : « ما آلكم ؟ »
 قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ أو نشرب ، إلا ما بين يديك .
 فوضع الرسول صلى الله عليه وسلم يده في الركوة ، فحمل المساء
 يمور - بين أصابعه - كأمثال العيون . فشربنا وتوضأنا !!
 قيل : كم كنتم ؟
 قال : لو كنا مائة ألف لكفانا .. كنا خمس عشرة مائة (١) .

١٠ - تَكْثِيرُ الطَّعَامِ بِبِرِّكَتِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ ..

عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه ، قال :
 عملنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخندق ..
 وكانت عندي شُوَيْبَةٌ (٢) خير سمينة ..
 فقلت : لو وضعناها لرسول الله صلى الله عليه وسلم ..
 فأمرت امرأتى ، فطحننت لنا شيئاً من شعير ، وصنعت لنا منه خبزاً ،
 ودسحت لنا تلك الشاة ، فشوينها لرسول الله صلى الله عليه وسلم .
 فلما أمسينا وأراد الرسول صلى الله عليه وسلم الانصراف عن الخندق ..
 قال : وكنا نعمل فيه نهراً ، فإذا أمسينا رجعنا إلى أهلنا .. قال :
 قلت : يا رسول الله ، إني قد صنعت شويبة كانت عندنا ، وصنعنا معها
 شيئاً من خبز الشعير ، فأحبُّ أن ينصرف الرسول صلى الله عليه وسلم
 معي إلى منزلي ، وإنما أريد أن ينصرف معي الرسول وحده ..
 فلما قلت له ذلك ، قال صلى الله عليه وسلم : « نعم .. »

(١) رواه الشيخان . التاج : ج ٣ ص ٢٩٣ (٢) تصغير شاه .

ثم أمر صلى الله عليه وسلم صارحاً ، فصرخ أن انصرفوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى بيت جابر .
قال : فقلت : إنا لله وإنا إليه راجعون . فأقبل الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأقبل الناس معه ، فجلس فأخرجنا إليه ، مبارك وسمى ثم أكل . . وتواردها الناس . . كلما فرغ قوم قاموا وحاء ناس ، حتى صدر أهل الخندق عنها^(١) .

١١ - إخبارُهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ بِالْمَغِيبَاتِ :

عن عدي بن حاتم رضى الله عنه ، قال :
بينما أنا نائم عند النبي صلى الله عليه وسلم ، إذ أتاه رجل فشكا إليه الفاقة^(٢) . ثم أتاه آخر مشكا إليه قطع السبيل . .

فقال صلى الله عليه وسلم :

« يا عدي ، هل رأيت الحيرة ؟ »

قلت : لم أرها ، وقد أنبت عنها .

قال صلى الله عليه وسلم :

« فَإِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ ، كَتَرَيْنَ الظُّعِينَةَ^(٣) تَرْتَحِلُ

مِنَ الْحِيرَةِ حَتَّى تَطُوفَ بِالْكَفَّةِ ،

لَا تَخَافُ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ ! »

قلت : فيما بيني وبين نفسي - :

فأين دُعَارُ^(٤) طيء الذين قد سَعَرُوا^(٥) البلاء ؟

(١) أخرجاه - الوفا : ج ١ ص ٢٧٤ (٢) الفاقة : الفقر
(٣) الظعينة : المرأة المسافرة
(٤) الدعر : الفساد .
(٥) سر : هيج وألمب .

« وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ ، لَتُفْتَحَنَّ كُنُوزُ كِسْرَى . »

قلتُ : كِسْرَى بن هُرْمَز ؟

قال صلى الله عليه وسلم

« نَعَمْ ... وَلَئِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ ،

لَتَرَيْنَ الرَّجُلَ يُخْرِجُ مِلاً كَفَيْهِ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ ،

فَلَا يَجِدُ مَنْ يَقْبَلُهُ ... !

وَلَيُلْقَيْنَ اللَّهُ أَحَدُكُمْ - يَوْمَ يَلْقَاهُ -

وَلَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ (١) يُترجمُ لَهُ .

فيقول له :

[أَلَمْ أُبْعَثْ إِلَيْكَ رَسُولًا ، فَيُبَلِّغَكَ ؟]

فيقول : بَلَى .

فيقول : [أَلَمْ أُعْطِكَ مَالًا وَوَلَدًا ، وَأُفْضِلُ عَلَيْكَ]

فَيَنْظُرُ عَنْ يَمِينِهِ ، فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ ... !

وَيَنْظُرُ عَنْ شِمَالِهِ ، فَلَا يَرَى إِلَّا جَهَنَّمَ ... !

فَاتَّقُوا النَّارَ ، وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ ..

فَمَنْ لَمْ يَجِدْ ، فَبِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ . »

قال عدى : فرأيت الظعينة ترتحل من الحيرة حتى تطوف بالبيت ،

لا تخاف إلا الله !! وكنت فيمن افتتح كنوز كِسْرَى . ولئن طالت

بك حياة ، لترين ما قال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم (٢) .

(١) الترجمان : المفسر للسان .

(٢) رواه البخارى - التاج . ج ٣ ص ٣٠٤ .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم
أنه قال :

« إِذَا هَلَكَ كِسْرَى ، فَلَا كِسْرَى بَعْدَهُ .

وَإِذَا هَلَكَ قَيْصَرٌ ، فَلَا قَيْصَرَ بَعْدَهُ ! .

وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ :

لَتُتَفَقَّنَ كُنُوزُهُمَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ^(١) ! »

ولقد صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما قال ، فإن مملكة
كسرى الفارسية ، ومملكة قيصر الرومانية ما لبثتا أن امتدت
في زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه . وغنم المسلمون منهم مغانم
كثيرة .. واستخدمت كنوزهما في سبيل الله عز وجل ! .

هذا ومن الملاحظات التي تنبه إليها : أننا لم نأت في هذا الفصل
بكل معجزاته عليه الصلاة والسلام ، فهي كثيرة جداً . كما أننا
نستوعب كل الروايات التي وردت في كل معجزة من معجزاته ؛ بل
أشرنا إلى كل معجزة إشارة فيها الكفاية والغنية ، واقتصرنا على غير
الغرض ونصّ القصد ، والله الموفق والهادي للصواب .

الخاتمة

(أَحْسَنَهَا اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى)

لا يَخْفَى عَلَى كُلِّ ذِي بَصِيرَةٍ أَنَّ غَرَسَ عَقَائِدَ الدِّينِ فِي قُلُوبِ
الْفَتِيَانِ وَالْفَتَيَاتِ ، وَاسْتَمْرَارَهُمْ عَلَى أَدَاءِ الْوَاجِبَاتِ الشَّرْعِيَّةِ وَالْفَرَائِضِ
الْإِسْلَامِيَّةِ ، لَا يَتَأْتِي إِلَّا إِذَا امْتَزَجَتْ بِقُلُوبِهِمْ ، وَتَمَكَّنَتْ مِنْ
سَرَائِرِهِمْ ، وَجَنَحُوا بِكَلِّتَتِهِمْ إِلَيْهَا ، وَشَبَّوْا مِنْ صَفَرِهِمْ عَلَيْهَا - أَيْ مِنْ
سِنِ الطَّفُولِيَّةِ الَّتِي هُوَ إِبَّانُ الْقَابِلِيَّةِ - وَاسْتَعْدَادِ النُّفُوسِ إِلَى مَا يُلْقَى
إِلَيْهَا وَيُغْرَسُ فِيهَا ، وَهُوَ الْأَمْرُ الَّذِي بِهِ سَعَادَةُ الْعَالَمِينَ فِي الدُّنْيَا
وَالدِّينِ .. وَلَنْ يَكُونَ ذَلِكَ إِلَّا سَرْدَ بَعْضِ خَصَائِصِ سَيِّدِنَا رَسُولِ اللَّهِ
مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَيْهِ - وَآلِهِ وَصَحْبِهِ - وَاسْمٌ ، فَقَدْ أَجْمَعْتُ
الْأُمَّةَ عَلَى أَنَّ الْحَبَّ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَرَضَ
عَيْنَ ، لِقَوْلِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى :

﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِلَّهِ ﴾ .

وَفِي الْحَدِيثِ الشَّرِيفِ :

« لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ :

أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا . »

وَقَدْ أَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْمَحَبَّةِ ، فَقَالَ :

« أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ ،

وَأَحِبُّوْنِي لِحُبِّ اللَّهِ إِلَيَّ . »

وَمَا أَلْطَفَ قَوْلَ « حَلِيمَةٍ » - رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهَا - نَقْلًا :

بِأَغْنَامِهِ سَارَ الْحَبِيبُ إِلَى الْمَرْعَى
 فَيَا حُسْنَهُ رَاعٍ ، فُؤَادِي لَهُ يَرْعَى
 وَمَا أَمْلَحَ الْأَغْنَامَ وَهُوَ يَسُوقُهَا
 لَقَدْ آتَسَ الصَّخْرَا وَأَوْحَشَ الرَّبْعَا
 مَلِيحٌ مُنِيرُ الْوَجْهِ ، شَمْسُ الضُّحَى لَهُ
 غَدَتْ غُرَّةً ، وَاللَّيْلُ عَادَ لَهُ قَرَعَا
 جَمِيلٌ عَلَا وَجْهَ التَّحَاسِينِ وَجْهَهُ
 كَانَ مُبْدُورَ التَّمِّ ، قَدْ طَبِعَتْ بِهِ طَبْعَا
 أَقُولُ لَهُ إِذْ أَشَارَ بِالْبُرِّ مَاشِيَا
 وَأَغْنَامُهُ مِنْ حَوْلِهِ تَطْلُبُ الْمَرْعَى
 عُيُونُكَ - يَا رَاعِي الْحِمَى - قَتَلَتْ بِنَا
 قَقْوَمٌ بِهَا أَسْرَى ، وَقَقْوَمٌ بِهَا صَرَعَى
 لَوْلَاكَ - يَا رَاعِي الْحِمَى - مَا تَشَوَّقْتُ
 نَفُوسٌ إِلَى بَانِ الْعَقِيقِ وَلَا الْجَرَعَا
 وَمَا أَنْتَ رَاعٍ لِلْمَوَاشِ ، وَإِنَّمَا
 تَرَعَى الْوَرَى ، تُبْدِي لَهَا النَّفْلَ وَالشَّرْعَا
 أَمَا وَالَّذِي أَبْكَى وَأَضْحَكَ ، وَالَّذِي
 أَمَاتَ وَأَحْيَا ، وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى
 لَقَدْ خَابَ مَنْ يَسْتَعِي إِلَى بَابِ غَيْرِكُمْ
 وَضَلَّ الَّذِي يَتَوَمَّا إِلَى غَيْرِكُمْ يَسْتَعِي

حَبِيبِي ، حَبِيبِي : أَنْتَ رَاعِي قُلُوبِنَا
وَلَوْلَاكَ ، يَا مُخْتَارُ ، مَا عُرِفَ التَّرَعَّى

هذه هي بعض اللذائذ الروحية التي تُعَدُّ بحق حُرًا من
الأنوار المحمدية المختارة في بعض من شمائل من أحبّه الله وأحتره
صلى الله عليه وسلم !.. وبذلك يزداد إيمان المسلمين من الرجال
والنساء ، لأن الإيمان ينقص ويزيد .. هذا من ناحية الآباء
والأمّهات .. أما من ناحية الشباب على نوعيه ، فكلما تأصلت المحبة
في قلوبهم لسيدنا رسول الله ﷺ كما حرصوا على اتباع شريعته ..
لذا حاولت - جهد الطاقة - أن أضع هذا الكتيب في هذا الشأن ،
مع علمي أنه ينبغي لسكل مؤلف كتاب في فن قد سبق إليه ،
ألا يخلو كتابه من خمس فوائد وهي : استنباطه شيئاً كان مُفضلاً ،
أو جمع شيء كان متفرقاً ، أو شرح شيء غامض ، أو حُسن نظم
وتأليف ، أو إسقاط حشو وتطويل .

وأرجو ألا يخلو هذا الكتيب من بعض هذه النواحي التي
ذُكرت ... وما مرّ عليك - سيدي القاري - كنت أودّ
ألا أترك صغيرة ولا كبيرة من شأنه صلى الله عليه وسلم ! ..
واسكن ذلك ليس في المُسكنة ؛ فهذه الشمائل الشريفة لو أردت
أن أجمع - ولو من كل كتاب كلمة واحدة - فلن يُسهمني الزمان !..
جعل الله هذه الكلمات - في حبيبه المصطفى ﷺ -

خالصة لوجهه الكريم ، ونفع بها النفع العميم ، وغفر لجامعها ،
ولمن دَعَا لَهُ بالمَغْفرة ، ولكل من اشترك فيها ، أو علّم بها ،
أو قرأها على المسلمين ، وللمسلمين أجمعين .

اللهم ارحمني ، وأسألكني ، ومُصَحِّحِي هذا الكتاب ، وكل من رضى
عنه واستحسنه ، وكل من قرأه ، أو علمه لغيره ، وأرحم والدي ،
وجميع أولادي وأهلي ، وجميع المسلمين في الدنيا والآخرة ،
وتقبله مني ، وأجعله خالصاً لوجهك الكريم ، وأدخلنا الجنة
من غير سابقة عذاب ، ولا توبيخ ، ولا عتاب ..
اللهم : أرزقني ، وأكرمنا برؤيتك يا ذا الجلال والإكرام .
اللهم : بارك للسيد الجليل ، الأخ في الله ،
الذي قام بطبع هذا الكتاب ، وأخرجه إلى حيز الوجود :
الحاج : رشاد كامل كيلاني صاحب مطبعة السكيلاني ،
مؤسس مشروع (سبيل الله)
حفظه الله ورعاه ...

سيدنا رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم :
ينبوعُ الشرائع والعلوم ، ومعدنُ أسرار المنطوق والمفهوم ..
وآله وأصحابه : نجومُ الهداية وحماةُ الملة .. وخلفاؤه هم الأئمة
الأعلام ، وعلماء شريعته المقررون لما على الدوام ..
قال بعض الأفاضل في مدح أهل بيت رسول الله
صلى الله عليه وسلم :
هُمْ الْقَوْمُ ، مَنْ أَصْفَاهُمْ الْوَدُّ مُخْلِصًا
تَمَسَّكَ فِي أَخْرَاهُ بِالسَّبَبِ الْأَقْوَى
هُمْ الْقَوْمُ فَأَقُوا الْمَالِمِينَ مَنَاقِبًا
مَحَاسِنُهُمْ تُخَكِّي وَأَيَاتُهُمْ تُرَوَّى

مُوالَاتُهُمْ قَرْضٌ وَحُبُّهُمْ هَدَى
وَطَاعَتُهُمْ وَدٌّ وَوُدُّهُمْ تَقْوَى ..

وقال غيره :

أَرَى حُبَّ آلِ الْبَيْتِ مِنَّا فَرِيضَةً
بَنَصُّ أَتَانَا ذِكْرُهُ يَكْشِفُ الْكَرْبَا
تَبَاعُدُنَا عَمَّا يُخِـلُّ بِمَجْدِهِمْ
عَلَى رَغْمِ أَهْلِ الْبَيْتِ قَدْ زَادَنَا قُرْبَا
فَمَا طَلَبَ الْمُخْتَارُ مِنَّا جَزَاءَهُ
مُكَافَأَةً حَسَبًا تُعْدُّ لَنَا عُقْبَى
وَتَرْجُو بِهَا حُسْنَ الْقِيَامِ بِحَقِّهِ
- عَلَى هَدْيِهِ - إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى

وبعد : فهذه كلمة في بعض مناقب سيد الخلق صلى الله عليه وسلم ، أردنا أن نختم بها الكلمات السابقة التي مرت عليك ، لنشرف بذكر اسمه في الأولى والآخرة عليه أزكى الصلاة وأتم السلام .
كنت أريد أن أذكر (أجداده) صلى الله عليه وسلم ،
من السيد « عبد المطلب » إلى السيد « عدنان » لنختم به كتابنا هذا ..
وكذلك عن السيدة « آمنة بنت وهب بن عبد مناف » ، وما يتعلق بها ..
وعن (صفته) عليه الصلاة والسلام (وأعمامه) الأحد عشر ..
(وأزواجه) من السيدة « خديجة » إلى السيدة « صفية » ..
وغیر هؤلاء التسع الذي توفي عنهن ..
وكذا (موالیه) من « زيد » إلى « أبي سيلة » و « أبي الحمرا » ..
و (خدمه) من « أنس بن مالك » إلى « هند » و « أسماء » ..

ومن هو صاحب كتليه ، إذا قام ألبسه إياها .
و (كُتَّابُه) من « أبي بكر » إلى « ريد بن ثابت » و « معاوية »
و (رُسُلُه) من « عمرو بن أمية » إلى « معاذ بن جبل » . .
و (مُؤَدِّئِه) من « بلال » إلى « سعد القرظ » .
و (سراياه) الست والخمسين . و (غزواته) السبع والعشرين . . .
وكل ما مرّ عليك من سطور سابقة يحتاج إلى تفصيل ديني وتاريخي
سُفِّرد له كتاباً جديداً ، إن شاء الله ، لو كان في العمر بقية . .
ومن هذه الخصائص التي سند كرها في الكتاب الجديد :
الأضحية ، والوتر ، والضحى ، وقيام الليل ، ومواصلة الصوم ،
وأخذ ما حُرِّر من المَغْنَم قبل التَّسَم ، وخمس الخمس من الفَيْء
والغنيمة ، وجعل ميراثه صدقة على المسلمين ، وتزويجه من شاء
لمن شاء مع عدم الإذن ، ورؤيته من خلعه مثل رؤيته من ثلغائه ،
وعدم نوم قلبه ، مع نوم عينيه ، ونسخ شريعته فرائع من قبله ،
وكونه سيد ولد آدم ، وأول شافع ومشفع ، وقارع لباب الجنة
وداحلها ، وأول من تنشق عنه الأرض وأكثر الأنبياء تبعاً ،
وصلاته بالأنبياء ليلة الإسراء ، وإعجاز كتابه الذي هو القرآن ،
وحفظه عن التحريف والتبديل ، وقيامه حُجَّة على الناس بعده ،
والاحتجاج بسكوته على جواز ما لم يُنكره بعد الرؤية . . . إلخ .
أما الآن ، فسند كركم معنى روائع الطَّيِّب ،
حتى تتروَّح لها ، بل وطيب الطَّيِّب ؛
فأعزني قلبك وهواك ، في حُبِّ سيِّد البشر والأُملاك . .

سيدنا رسول الله محمد صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم :
سراج من نور الغيب ، لأنه الرسول الأعظم ، رسول الإسلام ،
وحير الأنام ، الموصوف في القرآن الكريم بقوله تبارك وتعالى :
{ .. وَسِرَاجًا مُنِيرًا } .

رفع الله قدره .. فلم يخاطبه الله تعالى باسمه ، كما خاطب
إخوانه المرسلين في القرآن الكريم ، بل قال تبارك وتعالى :
{ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ .. } ، { يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ .. }
{ يَا أَيُّهَا الْمُرْسَلُ .. } ، { يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ .. } .
مع أنه تعالى قال : { يَا نُوحُ .. } ، { يَا إِبْرَاهِيمُ .. } ،
{ يَا دَاوُدُ .. } ، { يَا مُوسَى .. } ، { يَا عِيسَى .. } .
وقد أقسم الله - تبارك وتعالى - بحياته صلى الله عليه وسلم
في القرآن الكريم ، فقال جل شأنه :

{ لَعَنَ مَن كَانَ لِنَفْسِهِ سَكْرَتِيمٌ يَغْمَهُونَ } .
وقد أمر تبارك وتعالى أن يكون النداء له صلى الله عليه وسلم
مميزاً عن النداء لغيره ، افتداء به - تبارك وتعالى - في مُناداته ،
كما ترى في مخاطباته السابقة ، فقال تبارك وتعالى :
{ لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ ،
كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا } .

وأمر سبحانه تبارك وتعالى بالتأدب معه ﷺ فقال :
{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ
وَرَسُولِهِ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ ، إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ } .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ
النَّبِيِّ ، وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ ،
أَنْ تَخْبِطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ . إِنَّ الَّذِينَ
يَغْضُونَ أَصْوَاتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ
اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ .
وقال تبارك وتعالى : ﴿ وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ﴾ .

ورحم الله - تبارك وتعالى - من قال :

وَضَمَّ الْإِلَهَ اسْمَ النَّبِيِّ إِلَى اسْمِهِ

إِذَا قَالَ فِي الْخَمْسِ الْمُؤَذِّنُ : أَشْهَدُ

وَشَقَّ لَهُ مِنْ اسْمِهِ لِيُجِبَ اللَّهُ

قَدْرَ الْعَرْشِ : مَحْمُودٌ ، وَهَذَا : مُحَمَّدٌ

وقد طلع بدرُ ذلك الرفيع القدر من بلاد العرب ، من أعظمهم
نسباً ، كما أشار إلى ذلك « البوصيري » رضى الله عنه في هزبته :

وَبَدَا لِلْأَوْجُودِ مِنْكَ كَرِيمٌ

مِنْ كَرِيمٍ ، آبَاؤُهُ كُرَمَاءُ

نَسَبُ تَخَسِبُ الْمَلَا بِحُلَاهُ

قَلَدَتْهَا نُجُومُهَا الْجَوَازُءُ

حَبْدًا عَقْدُ سُودِدٍ وَفَخَارِ

أَنْتَ فِيهِ الْيَتِيمَةُ الْعَمَاءُ

ولتدبر قوله تبارك وتعالى :

﴿ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى . فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى .
فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ .

ولذا جهل وصفه الذي بعده وبمحيط به أي واصل يريد أن
يكشف عن حقيقته ، فهو صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم
على حد قول « ابن الفارض » ، رضى الله عنه :

وَعَلَىٰ تَفْشُرٍ وَاصِفِيهِ بِحُسْنِهِ
يَفْنَىٰ الزَّمَانُ ، وَفِيهِ مَا لَمْ يُوصَفْ
ورضى الله تبارك وتعالى عن « البوصيري » ،
إذ قال في الميمية المشهورة بالبردة :

دَعُ مَا ادَّعَتْهُ النَّصَارَىٰ فِي نَبِيِّهِمْ
وَاحْكُمْ بِمَا شِئْتَ مَدْحًا فِيهِ وَاحْتِكِمِ
وَانْسُبْ إِلَىٰ ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ
وَانْسُبْ إِلَىٰ قَدَرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمِ
فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللَّهِ ، لَيْسَ لَهُ
حَدٌّ ، فَيُغْرِبُ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ
إلى أن قال :

أَعْيَا الْوَرَىٰ فَهَمُّ مَعْنَاهُ ، فَلَيْسَ يُرَىٰ
لِلْقُرْبِ وَالْبُعْدِ فِيهِ غَيْرُ مُقْتَحِمِ
فَالشَّمْسُ تَظْهَرُ لِلْعَيْنَيْنِ مِنْ بُعْدِ
صَفِيرَةٍ وَتُكِلُ الطَّرْفَ مِنْ أَمَمِ

أى أن كل من حاول الاستقصاء عن حقيقة قدره ، وما أودع من السرِّ فيه صلى الله عليه وسلم ، فلا بد وأن يعترف بالعمى والمعجز عن حقيقته - ومرتبته فوق ما تتصوره العقول - مفوضاً علم ذلك إلى الواحد القدير .

قال النبي صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم :

« وَاللّٰهُ مَا عَرَفَنِي ، غَيْرُ رَبِّيْ ... »

أنوار النبوة من نوره ، إذ هو صلى الله عليه - وآله وصحبه - وسلم أبو الأضواء ، والسرُّج المشرقة هم الأنبياء : أنوارهم من نوره ؛ فهو الهادى بشريعته الحاوية لكل ما فى الشرائع السابقة المنسوخة بشريعته ، حتى أن الأنبياء صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين - بنص آية الميثاق - كانوا نوابه فى تبليغ شرائعهم لأممهم فى عالم الأجسام .

قال صاحب الهزبية :

أَنْتَ مِصْبَاحُ كُلِّ فَضْلٍ فَمَا تَصِفُ
سَدْرُ إِلَّا عَنْ صَوْنِكَ الْأَضْوَاءِ

ومن يُخيفنا أن نقول : إنه أقدم من القدم ، أعنى أنه صلى الله عليه وسلم كان قبل الأمم ، يؤيد ذلك الحديث الشريف ، عن ميسرة الفجر ، قال : قلت يا رسول الله : متى كنت نبياً ؟

قال ﷺ : « وَآدَمُ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ . »

(رواه الإمام أحمد ، والبخارى فى التاريخ ، والطبرانى ، والحاكم وصححه . وقال الحافظ : سند قوي) .

قُلت : ورواه أبو الحسن بن بشران ..
ومن طريقه : ابن الجورى فى كتاب : « الوفا بفضائل المصطفى »
بلفظ : قلت يا رسول الله : متى كنت نبياً ؟
قال صلى الله عليه - وآله وصحبه - وسلم :
« لَمَّا خَلَقَ اللَّهُ الْأَرْضَ ، وَاسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ
سَبْعَ سَمَاوَاتٍ ، وَخَلَقَ الْعَرْشَ ، كَتَبَ عَلَى ساقِ الْعَرْشِ :
﴿ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ ، خَاتَمُ النَّبِيِّينَ ﴾ .
خَلَقَ اللَّهُ الْجَنَّةَ الَّتِي أَسْكَنَهَا « آدَمَ » و « حَوَاءَ » ،
فَكَتَبَ أَسْمَى عَلَى الْأَبْوَابِ وَالْأُورَاقِ وَالْقِيَابِ وَالْخِيَامِ ؛
وَأَدَمَ بَيْنَ الرُّوحِ وَالْجَسَدِ ..
فَلَمَّا أَحْيَاهُ اللَّهُ تَعَالَى ، نَظَرَ إِلَى الْعَرْشِ ،
فَرَأَى أَسْمَى ، وَأَخْبَرَهُ اللَّهُ أَنَّهُ : سَيِّدُ وَلَدِكَ ..
فَلَمَّا غَرَّهُمَا الشَّيْطَانُ ، تَابَا ، وَاسْتَشْفَعَا بِأَسْمَى إِلَيْهِ .
وإسناد هذه الرواية قوى أيضاً .
روى عبد الرازق عن جابر بن عبد الله الأنصارى رضى الله
عنه ، قال : قلت يا رسول الله ، بأبى أنت وأُمى .
أخبرنى عن أول شيء خلقه الله تعالى قبل الأشياء .
قال صلى الله عليه وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم :
« يَا جَابِرُ : إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى خَلَقَ - قَبْلَ الْأَشْيَاءِ -
نُورَ نَبِيِّكَ مِنْ نُورِهِ .. فَجَعَلَ ذَلِكَ النُّورَ يَدُورُ بِالْقُدْرَةِ ،

حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى ، وَلَمْ يَكُنْ - فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ -
لُوحٌ وَلَا قَلَمٌ ، وَلَا جَنَّةٌ وَلَا نَارٌ ، وَلَا مَلَكٌ وَلَا سَمَاءٌ
وَلَا أَرْضٌ ، وَلَا شَمْسٌ وَلَا قَمَرٌ ، وَلَا جِنٌّ وَلَا إِنْسٌ .

فَلَمَّا أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ ، قَسَمَ ذَلِكَ النُّورَ ،
أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ : فَخَلَقَ مِنَ الْجُزْءِ الْأَوَّلِ : حَمَلَةَ الْعَرْشِ ،
وَمِنَ الثَّانِي : الْكُرْسِيِّ ، وَمِنَ الثَّلَاثِ : بَاقِيَ الْمَلَائِكَةِ .

ثُمَّ قَسَمَ الْجُزْءَ الرَّابِعَ أَرْبَعَةَ أَجْزَاءٍ ،
فَخَلَقَ مِنَ الْأَوَّلِ : نُورَ أَبْصَارِ الْمُؤْمِنِينَ ،
وَمِنَ الثَّانِي : نُورَ قُلُوبِهِمْ وَهِيَ الْمَعْرِفَةُ بِاللَّهِ ،
وَمِنَ الثَّلَاثِ : نُورَ أَنْسِهِمْ .

هذا ولعل الجزء الرابع من هذا التقسيم الأخير ، هو الذي
كان بتلألاً في وجوه آبائه صلى الله عليه وآله وتعالى عليه
- وآله وصحبه - وسلم ، حتى انتقل إلى أبيه « عبد الله » .

وقد رآته « فاطمة » الخشعية التي طلبت منه الوقاع ، فقال :
أَمَّا الْحَرَامُ ، فَالْتِمَاتُ دُونَهُ وَالْحِلُّ لَا حِلَّ فَأَسْتَبِيْنُهُ
فَكَيْفَ بِالْأَمْرِ الَّذِي تَبْغِيْنُهُ يَحْمِي الْكَرِيمُ عِرْضَهُ وَدِينَهُ
وَالْخَلَاصَةَ أَنْ حُسْنَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُنْتَمِعٌ عَنْ شَرِيكَ فِيهِ ،
فَهُوَ كَقَوْلِ « الْبُصَيْرِي » رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِيهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

مُنْزَعٌ عَنْ شَرِيكَ فِي مَحَاسِنِهِ
فَجَوْهَرُ الْحُسْنِ فِيهِ غَيْرُ مُنْقَسِمٍ

ويقول في موضع آخر صلى الله تبارك وتعالى عليه وسلم .
 كَفَاكَ بِالْعِلْمِ فِي الْأُمِّيِّ مُعْجِزَةً
 فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَالْتَّأْدِيبِ فِي الْيَتِيمِ
 فَالْحَقُّ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَنْطَقَهُ بِالْحَقِّ ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ :
 آيَاتُ حَقٍّ مِنْ الرَّحْمَنِ : مُخَدَّتَةٌ
 قَدِيمَةٌ ، صِفَةُ الْمُوصُوفِ بِالْقِدَمِ

فالرسول عليه الصلاة والسلام ،
 ﴿ وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ﴾ .
 والقرآن كلام الله القديم المعجز عن الإتيان بمثله .
 فيا الله ، بجاه حبيبك وصفيك ومُصطفاك رسولك الكريم :
 محمد صلى الله تبارك وتعالى عليه - وآله وصحبه - وسلم ،
 كما أكرمنا ومننت علينا بالسعادة الكبرى ، والنعم الذي لا ينفى ،
 إذ جعلتنا من أمة عليه الصلاة والسلام ، كذلك نتضرع إليك
 ونضرع : أن تُديم بالبقاء والحفظ بيتك الحرام والكعبة المشرفة ،
 التي في شرع استقبالها توحيد اتجاه المسلمين ، وقيام وحدتهم ؛
 حيث يكونون أقوىاء بين العالمين . قال الله تبارك وتعالى :
 ﴿ جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ ﴾ .
 اللهم احفظ البيت الحرام ، والمسجد الذي به سيّد الأنام ،
 بما حفظت به الذّكر الحكيم وسائر بلاد المسلمين من كيد الكائدين ،
 أعدائك أعداء الدين ، من المنصوب عليهم والضالين .
 اللهم : آمين . آمين .

طبع في نفق الحبار تبارك وتعالى
عند احضرة النبي المصطفى :

سیدنا : محمد

لَهُ وَآلِهِ سَلَامٌ أَفْصَلُ الصَّلَاةِ وَأَتَمُّ التَّسْلِيمِ
دَاعِيَةُ الْآمُونِ بِرَبِّهِ وَقَلْبُ قُدْرَتِهِ :

آن فون سدا . سدا

الْوَسِيلَةُ وَالْمُضَيَّلَةُ وَالذَّرَجَةُ الرَّفِيعَةُ ،

وَأَنْ تَتَّبِعَهُ - اللَّهُمَّ - مَقَامًا مَحْمُودًا الَّذِي وَعَدْتَهُ ،
الَّذِي إِذَا سَأَلَ أُعْطِيَتهُ ، وَإِذَا طَلَبَ أُجِنِّتهُ ..
إِنَّكَ يُبْعَثُكَ لَا تُخْلِفُ الْوَعْدَ

❖ ❖ ❖

عمر الله اننا ، ولوالدينا ، ولجميع المؤمنين ، المؤمنات

والصلاة والسلام على سيدنا : محمد

خاتمة الأنبياء والمرسلين

مطبعة الكيلاني

الم إلى وال : سعادتك على وجهه . ١٥٢

١٠٠٠ في سنة العدة ثمان المئات

[illegible]